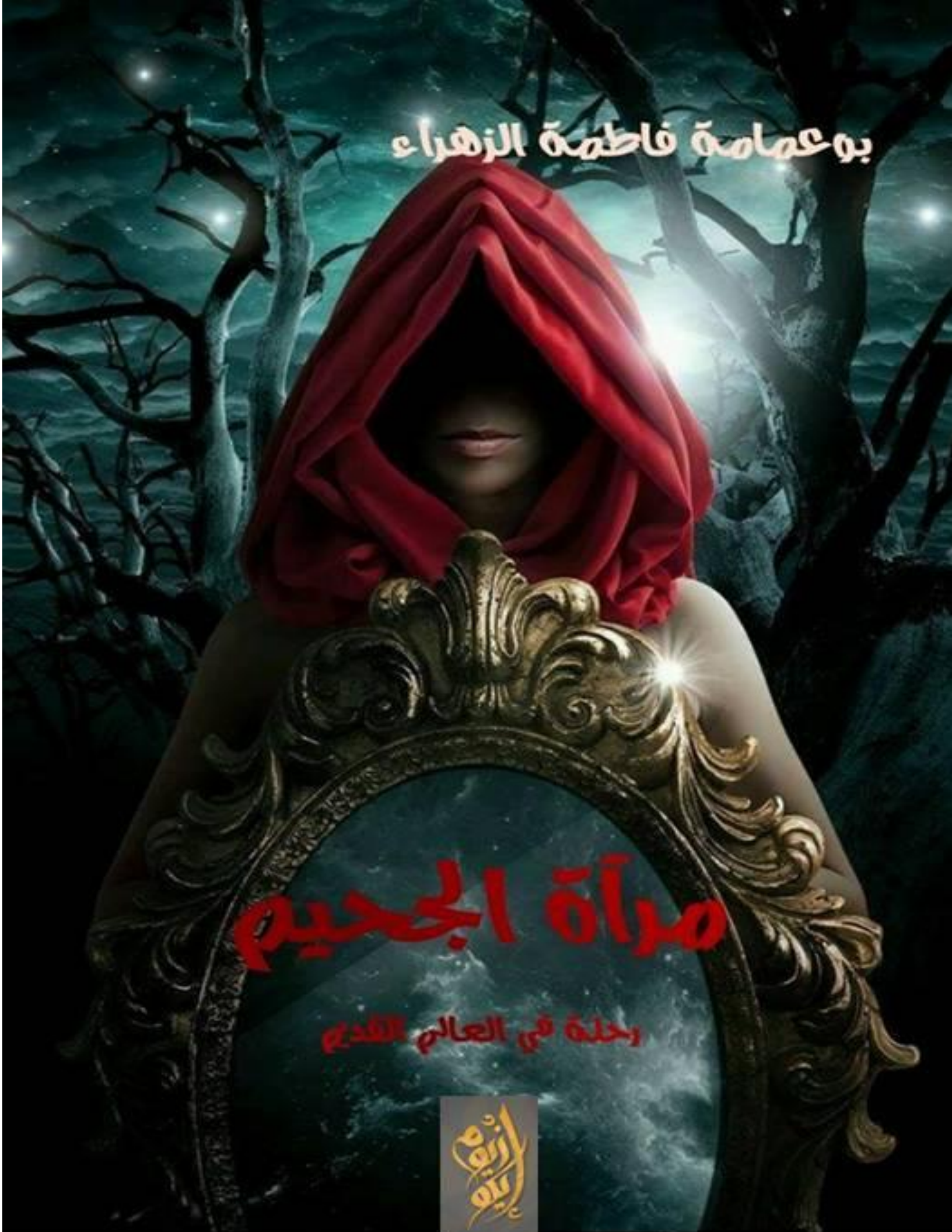
بوعصامة فاطمة الزهراء
مرآة الجحيم
رحلة في العالم الغير

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الكاتب أو من النّاشر .

ردمك :

9788827573952

ICOSIUM

صرآة الجحيم

رحلة في العالم القديم

بقلم: بوعصاصة فاطمة الزهراء

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا العمل المتواضع الذي أضعه بين يدي القارئ ما هو إلا حكاية نسجت خيوطها من وحي الخيال، وكتابة جديدة في مجال الرواية أهديه لكل متعطش للقراءة، لكل من يجد في القصص والروايات فرصة للمغامرة، لكل من يسكن روحه خيال جامح، لكل من يؤمن بالخرافات ولكل من يشكك بها، للباحث فيها عن الجمال وللمدقق في تفاصيلها وتناقضاتها...

أهديها لروح أبي الطاهرة، لوالدتي مصدر فخري التي ما فتئت تحذرني لأبتعد عن سرد مثل هذه الحكايات، لأختي وتوأم روحي التي تفهم جيدا مقصدي من كل جملة أكتبها دون حاجتي للشرح، إلى رفيق دربي الذي يساندني ويسعى جاهدا ليوجهني ويعمل على أن تكون لكتاباتي رسائل هادفة... إلى كل من شجعني وساعدني وساندني... إلى كل من سيقرأ هذه الرواية و هذه السطور...

بقلم: بوعمامة فاطمة الزهراء

تقديم:

يعرف العالم تسارعًا وتطورًا كبيرين في مختلف الجوانب والمجالات، وهو الأمر الذي انجر عنه فراغ كبير وهوةٌ لاتزال تتسع بين الأجيال المتعاقبة، فبالرغم من وجود بعضٍ ممن استطاعوا التأقلم مع هذه المتغيرات و تمكنوا من تقبل نُظُم الحياة الجديدة، إلا أن الغالبية العظمى ممن حظوا بعمر طويل وبقوا من الأجيال القديمة لازالوا يعيشون بذهنية السنوات الماضية ويمارسون حياتهم بنفس الطقوس والتقاليد الغابرة، وفي المقابل نجد أصحاب العمر الصغير من الأجيال الجديدة في تحدٍ كبيرٍ للتّحرر من سطوة هذه العادات القديمة التي تقيّد المجتمعات، والتّي يعكف الآباء والأجداد على زرعها في النشء الجديد كمحاولة منهم للحفاظ على إرثهم الحضاري العشائري والفكري، فمنهم من انتمى إليها واكتسى بها، و منهم من انسلخ عنها وكفر بها وهؤلاء هم الذين التزموا بالتجديد والاحتكام للعقل والمنطق وتقيدوا بقوانين العلم لإنشاء مجتمع جديد.

إن هذه الرواية ليست إثباتا للخوارق أو نفيًا لها، بل هي نظرة من زاوية مغايرة مسلّطة على الفرق بين تفكير جيلين متعاقبين، أين حكمت الخرافة حقبة من الزمن وتلتها فترة تشكيك، فهناك من يؤمن بالأرواح والأشباح وهناك من ينفي وجودها ويجد الكثير من التفسيرات لها، وهناك العالقون بين حقيقة الواقع وخرافة القصص، غير قادرين على التعبير عن قناعاتهم وفي كثير من الأحيان غير قادرين على الحكم بالتصديق أو النكران، ولكني ككاتبة كان لابد لي من الانحياز إلى أحد الأطراف خلال سرد الأحداث لإضافة بعضٍ من التشويق....

بين الحقيقة والسراب... اعترافات

لنجعلك تقرأ هذا الكتاب يفترض أن نخبرك بمحاسنه، ومقدار الكم الهائل من المعلومات التي ستحصل عليه بنهاية آخر كلمة فيه، لكن الحقيقة كما يقال مؤلمة، فقد لا تستفيد منه شيئا وقد تصفه بالعبث ...لا تستغرب فقد عبثت بنا أحداثه لسنوات ولاتزال تفعل. لكن أكثر ما يخيفنا أن تتم قراءته وترميه بأحد الرفوف فيملأه الغبار، وقد تنوي يوما أن تتخلص منه فتقلب صفحاته لمرة أخيرة فتكتشف أن الأحداث قد تغيرت... لا تخف ليس سحرا بل هو عبث... مجرد عبث.

إن الكون في دوامة صراع دائم بين المتناقضات، ويظهر هذا جيدا في مختلف تجلياته، فالألوان رغم كثرتها لا تزال تمثيلا للأبيض والأسود، دائرة الليل والنهار، متلازمة الحرب والسلام، مفارقة الحقيقة والسراب... هناك دوما نقيضين: الضد وما يقابله.

تتبعني إذن حتى لا تضيع، فالقصة دائما لها وجهان وراويها قد اختار منها جانبا وأغفل بقية الأحداث، هنا يأتي دورنا لنوجهك من خلال هذا الكتاب ويبقى عليك معرفة الكاذب فينا أو بالأحرى من منا أجاد الحبكة حتى تلاشت الحقيقة ولم يعد لها مكان. وحتى لا تختلط الأمور أعرفك بنا: نحن أخوان توأمان، قصتنا بها الكثير من الشبهات وعليك مساعدتنا في إغلاق مصير بعض الذكريات فيها.

أما أنا فأدعى "أدهم" أول مولود ذكر للعائلة، وترى فيّ جدتي المنقذ، فقد كنت أنا من كسر لعنة البنات التي تطاردهم، كانت ولادتي سهلة على أمي فقد أنجبتني بمجرد وصولها للمستشفى، أمي درة عيني حتى وأنا أولد لم أشأ أن أتعبها ولو كان ذلك بأول يوم لي في هذه الدنيا، في المقابل ليتني أستطيع قول نفس الشيء عن توأمي (لا تنزعج من فضلك أعلم اننا نروي الحكاية معا لكننا وعدنا القارئ بالصراحة) ... أتممت السادسة والعشرين قبل أيام ولم تكن تلك المناسبة أحد الأمور التي أفخر بها أو أود تذكرها، والسبب هو أخي...

كالعادة يفعلها ويلقي اللوم عليّ، لا تلق بالا لما يكتب قارئنا العزيز فنظرتي للأمور أصدق وأشمل، أنا "أيهم" الذكر الثاني للعائلة، أردت ان أكون الأول علي أحظى باللقب المميز "كاسر لعنة البنات"... أيها القارئ أعد قراءتها بصوت له صدى كما أفضل سماعها "كاااسر لعنة البناااااات"، لكن توأمي سبقني في ذلك وصار صاحب كل الاهتمام والحياة الناجحة.

والدتي العزيزة وبعد إنجاب أدهم عانت من بعض التقلصات التي لم أكن أنا سببها، لست أكذب، يمكنك سؤال والدي، طبخه السيء تلك الليلة أجبر جدتي على صنع مشروب عشبي للجميع لكنه لم يكن مناسبا لأمي

الحامل مما سبب لها تلك الآلام، مختصر الأمر أنا لم أسبب لها ذلك، هو فقط سوء توقيت. لو نظرت عن قرب ستعلم أن أمي هي سبب ألمي لأنها أنجبتني بعد منتصف الليل، لا تسألني كيف أن الأمر تعيس، ستفهم الأمر لو أخبرتك أن التاريخ على شهادة ميلادي كان التاسع والعشرين من شهر فيفري (فبراير) فبينما يحصل أدهم على عيد ميلاد كل سنة، أضطر أنا للانتظار أربع سنوات كأني أرقب نهائي كأس العالم... الأمر رهيب صدقني.

هو هكذا أخي ثرثار كلامه لا ينتهي، ولا أظنني الوحيد الذي يحسه كذلك. القصة ستبدأ الآن وان أحسست عزيزي القارئ بكيان ما يتحرك داخل غرفتك، أو أن هنالك نظرات غريبة تراقبك فلا مانع من تأجيل القراءة لوقت لاحق ففي نهاية الأمر نحتاج تركيزك الكامل. قد يخبركم أخي أنها أشباح وها أنا أؤكد أن لا وجود للأشباح فالأمر علمي بسيط لكنه يتشوش في بعض الأحيان... كما قال أيهم نحن توأمان بتاريخي ميلاد مختلف ولدت بالثامن والعشرين من فيفري وهو بالتاسع والعشرين، لم تكن بيننا اختلافات كثيرة كما أذكر فككل توأمين بيننا تلك الرابطة القوية التي تجعلنا متفقين ومتحدين ودائما معا، حتى لو أنكر ذلك وصدق أنها انكسرت في تلك الحادثة.

لأضعك بالصورة عزيزي القارئ سأخبرك أن منزل العائلة الكبيرة يقع بقرية أقل ما يقال عن أهلها أنهم غريبو الأطوار، وهو أمر ستلاحظه ما إن تجلس مع جداي لأكثر من خمس عشرة دقيقة، فقد تلاحظ جدتي تقوم بطرق أعواد الخشب لإبعاد عين حسود، وسيسألك جدي عن آخر مرة رأيت فيها غرابا أسودا... وبالقرية الكثير من المسطحات المائية، الأمر مقرف جدا خصوصا تلك البرك الضحلة التي حذرونا مرارا وتكرارا لألا نقترب منها، لكن أخي أيهم لا يصغي لأحد أو يضع كلامه بعين الاعتبار، فلو أخبرته أن يبتعد عن السكين مثلا تجده قد جرح إصبعه قبل نهاية كلامك، وهذا تقريبا ما حصل، فقد حذرتنا أمي من الابتعاد عن المنزل لأن الطقس شتوي والمستنقعات كريهة الرائحة كثيرة وقد نقع بأحدها، وبالفعل انتهى الأمر بأيهم يسقط بأكبرها.

بالنسبة لشخص يصفني بالثرثار، فأدهم قد تحدث أكثر مما توقعت وها هو يلقي عليّ باللوم مجددا، أذكر أن ذلك العام كان مميزا فقد بلغت عامي الثامن، وهذا يعني وصول يوم عيد ميلادي (عيد ميلادي الثاني أقصد)، لكن الجميع قرر الاحتفال به في يوم أسبق، طبعا تزامنا مع عيد ميلاد "كاسر لعنة البنات" محبوبهم المدلل، مع أنهم كثيرا ما يخلطون بيننا ويظنونني هو. لم أنم تلك الليلة من عظم خيبتي، فقد أردت يوما خاص مميزا، يومي الذي لا يشاركني فيه أحد. كان صباحا عاديا لدى الجميع، يوم كسل جماعي، تسللت من المنزل وكان الأمر لينجح لولا تلك الغبية فريال...

بئر الامنيات ...بئر الأشباح

(ذكرى أيهم)

لم أكن أريد سوى يومي الخاص وحفلة لي وحدي، دون أن أضطر للوقوف بجانب أدهم أراقبه وأتأمل الشبه بيننا وبين ملابسنا، والكل حولنا يغنون تلك المقطوعة السمجة. انتهى أخيرا عيد ميلاده وظللت ساهرا أنتظر منتصف الليل لأبارك لنفسي وأتمنى لي حياة طويلة سعيدة. لم يكن بغرفة نوم الأولاد ستائر فعمتي الكسولة جهزت الغرفة على عجل وأتاح لي ذلك رؤية البدر كاملا وقد صار لونه برتقاليا، رحت أراقبه الى أن صار ذا لون أحمر غريب يبعث الرهبة في النفوس، أحببت لونه ذاك كثيرا وكم تمنيت مشاهدته الى الأبد. ها هو القمر يغير لونه مبتهجا بعيد ميلادي، رحت أكرر هذه العبارة حتى سرقني النوم.

استيقظت مبكرا ثم تأكدت من نوم أدهم لأنه كعادته سيفضحني أمام أمي حينما أحاول الخروج، ثم نظرت عبر النافذة وكان أثر القمر الدموي لا يزال بالسماء وهناك بعض الضباب القريب من الأرض شبهته بجو الافلام التي تحكي قصص المستذئبين، نزلت الدرج بهدوء ودون أن أصدر أي صوت ومع ذلك أمسكتني تلك الغبية.

ــ صباح الخير أدهم.

ــ أنا أيهم ...اخفضي صوتك.

نظرت الي بعينيها الكبيرتين وهزت كتفيها: لا يهم، آتي معك.

ــ لست ذاهبا لأي مكان، دعيني وشأني... أدهم فوق اذهبي وأزعجيه.

ــ آتي معك.

هذه هي فريال الغبية، تصغرني بحوالي العامين ابنة عمي التي تتصرف كمسجلة تعيد جملها مرارا وتكرارا، كم أكرهها، لطالما كرهت عينيها الكبيرتين اللتين لا تتماشيان مع حجم رأسها الصغير. لا حاجة لي لأسالها كي أعرف أنها هي الأخرى تمقتني فهي لا تكف عن توريطي في المشاكل دائما بسبب أو بدونه.

ــ فريال اذهبي قبل أن أشدك من شعرك وأتسبب في بكائك.

شعرت بالحيرة فعلا وأنا أراها تصعد مسرعة وتتركني، تلك المادة الغرائية انفصلت عني بهذه السهولة ليس من عادتها فعل ذلك، هذه إحدى أمنيات عيد ميلادي تتحقق! ... وصلت الباب وارتديت حذائي للخروج ثم فوجئت به موصدا وليس لدي أدنى فكرة عن كيفية فتحه، كل تلك الأقفال غير الضرورية التي يضعها جدي تجعلني أقسم أنه بوابة سجن.

لم يكن ذلك الباب الموصد خيبة كافية فأرسل القدر فريال وخلفها أدهم وبقية أولاد العم: اذن هذه خطتك يا فريال.

أدهم وهو يحك عينيه ويتثاءب: إلى أين أنت ذاهب؟!

ــ للعب خارجا.

خيبتي الثالثة كانت خروج جدتي من غرفتها والصراخ بنا جميعا: إلى أين؟ أيهم يا حبيبي الوقت مبكر جدا، اللعب لن يهرب.

أدهم: جدتي أنا أيضا أود اللعب خارجا.

فريال: وأنا أيضا.

وبدأت الأصوات تكثر ولم يكن أمامي سوى أن أستسلم وأدخل المطبخ خلف جدتي التي لو تحديتها أكثر لتركتني دون فطور.

فطور جدتي ألذ من فطور أمي لكنه ذلك اليوم كان بطعم هزيمتي وانتصار تلك الغبية التي راحت ترمقني بتلك الابتسامة المستفزة المرسومة على وجهها. وأخيرا فتح الباب وكنت أول الخارجين، رحت أمشي دون تفكير، فالمهم عندي أن أترك مسافة بيني وبين البقية، وكم من مرة انغرس حذائي الشتوي بالطين ليبطئني ولكن لم أكن أبالي فالابتعاد عنهم كان أكثر ما يشغل بالي، وبعد بضع خطوات أخرى حال الضباب بيني وبينهم...

ها هي البئر غريبة الشكل أمامي، لا تشبه أي بئر رأيتها سابقا، ليست عميقة ومائها لم يكن صافيا بل عكرا تخالطه الرمال والأتربة، أجزم أنه لو قفزت داخلها لن يتجاوز مائها ركبتيّ. كانت فوهة البئر كبيرة جدا فلولا الجدار الطوبي الذي يحيط بها لقلت أنها بحيرة أو مستنقع. وقفت عند حافتها ورحت أتخيلها بئر الأمنيات، لم أكن أملك ما أرميه فيها كما يفعلون في القصص التي تروى لكن لم يكن لدي مانع لأجرب

حظي مع هذه: "أيتها البئر أتمنى عيد ميلاد خاص بي وحدي وأن يتوقف الجميع عن محاباة أدهم على حسابي وأن تتركني تلك الغبية فريال وشأني طوال العطلة و..."

قاطعت فريال أمنياتي: "كيف نعود للمنزل؟ لقد ابتعدنا"(تفاجأت بوجودها قربي فقد ظننت بأنني ضيعتها)

ــ لم تتبعينني؟ ... اففف... يمكنك الذهاب من ذاك الطريق، واصلي السير إلى أن تجدي فزاعة الجيران ومن هناك تعرفين كيفية الوصول للبيت.

فريال ليست غبية كما أدعوها دائما، فهي تعرف تماما أنها ليست طريق المنزل ومع ذلك راحت تبتعد وهي تنظر الي بغرابة. كم كنت مزهوا وأنا أراها تبتعد وتتلاشى وسط الضباب. وأنا أبتسم لفوزي عدت خطوة للوراء دون أن أنتبه، غاصت قدمي اليمنى في الطين وارتفعت رجلي اليسرى عن الارض وفي تلك اللحظة فقدت توازني وانقلبت داخل البئر.

الأمر ليس كما تخيلته... الماء العكر يصل رقبتي رحت أصيح طالبا للنجدة فاختلط صراخي بصوت فريال التي سمعت صوت ارتطامي وعادت، لم أكن أشعر بقدميّ ولا كتفي المكان جد بارد ومخيف. رغم أن ضوء النهار كان ساطعا إلا أن المكان من حولي بدى جد مظلم، أردت تحريك قدميّ علّي أستطيع السباحة وأبقي رأسي بالأعلى، لكنهما كانتا عالقتين والطين يسحبني لأسفل عند كل محاولة، وكلما قاومت كلما سُحبت أكثر. بدأت قواي تخور وبدأت فقد حواسي، أيقنت حينها أنها نهايتي وأنّي لن أرى أمي مجددا ولن أرى أبي ولا أدهم. وفي شبه تلك الغفوة سمعت ارتطامًا آخر وصراخ فريال يعلو أكثر فأكثر، ورأيت وجه أدهم أمام وجهي كأني أنظر للمرآة: "أيهم حرك قدميك، حرك ذراعيك مثلما أفعل حتى لا يسحبك الطين لأسفل أبق رأسك فوق الماء".

صحيح أني أردت أن أنجو بأي طريقة لكني كنت سعيدا لأني وإن مت فوجه أدهم سيكون آخر ما سأراه وليس قعر هذا البئر، كنت صغيرا بالثامنة آنذاك لكن ذلك ما كان يدور في راسي.

بدأ أدهم يسحبني لأعلى وتحررت قدماي، رأيت البسمة تعلو وجه وهو يحس بجسدي يتحرر، ثم هكذا فجأة سُحبت لأسفل البئر وسحبته معي، وصرنا كلانا عالقين، بعد ان كان هو منقذي، فقد غاصت أقدامنا في الطين وغطانا الماء العكر. في تلك الحظة أحسست بتلك الأيادي تلتف حولي تحاول تفريقي عن أدهم، ثم رأيت يدان بحجم يديْ أمي توضعان على كتفيه تبعدانه عني، بينما أيادٍ صغيرة وكثيرة تخربش ذراعيْ وتمسك بقدميْ تجذبني نحو الطين، والماء فوقي يعلو ويفصلني عن أخي أكثر فأكثر.

للحظة أمسَكَت يدُ أدهم يدي ووسط تلك المياه القذرة رأيت سوادًا راح يحيط بجسده، كيان جائعٌ أكثرُ رعبًا مما نحن فيه دار حول خصره ثم تلاشى، بينما جذبني أخي نحوه وهناك رأيتها تقف بعيدا، فتاة بوجه غريب بدا جزؤه الأيمن جميلا وجزؤه الآخر مشوها، وخلفها ولد بعمري يمسك خصرها وعينان خلف كتفيها... ثم تلاشت من أمام عيني تلك الصورة ليحل مكانها وجه أمي والدموع تنهمر عليه وخلفها الكثير من الوجوه التي لم أستطع تمييزها في تلك اللحظة.

حادثة البئر

(ذكرى أدهم)

كنا في بيت جدي ذهبنا إلى هناك لنحتفل بعيد ميلادنا الثامن، وكعادة أيهم في هذا الوقت من السنة فهو يحرص على جعل الأمر ينتهي كذكرى سيئة لي، ما المانع لو أننا نحتفل بعيد ميلادنا في يوم واحد؟! لست أرى سببا لتعصيبه وانزعاجه الدائم. انتهى الحفل هذه المرة دون أن يسبب لنا الاحراج أو المشاكل على غير عادته، لكنه رفض أن ينام بجانبي ليلا ولم يعرني أي انتباه في كل لحظة تقربت له فيها .قررت ألا ألاحقه واكتفيت بالتمدد مكاني أنتظر حتى يعود لطبيعته، كنت أراقب القمر عبر زجاج النافذة، ما أجمله! بدى بدرا كاملا لوهلة، لكنه في الحقيقة في حالة خسوف... قمر ثلجي لم أشاهد مثله في حياتي.

صباح اليوم الموالي أيقظتني فريال، هي أذكى ابنة عم حظيت بها، طيبة جدا وتبتسم على الدوام، كانت الوحيدة التي لا تخلط بيني وبين أيهم...

ــ فريال اذهبي للنوم دعيني أكمل نومي.

ــ أيهم ذهب خارجا ولم يأخذني معه.

استغربت لكلامها وقمت من مكاني نحو النافذة أستطلع لون السماء علّي أعرف الوقت، لكني تعثرت بقدم أحدهم انجرّعن ذلك سلسلة من الاصطدامات غير الضرورية جعلت كل أولاد العم يستيقظون ويستغربون وجود فريال بالغرفة. فريال أينما تكون يجب اللحاق بها للحصول على نصيب ما تعطيه لها جدتي من حلويات ومقرمشات معسلة.

غادرت الغرفة وتبعني الجميع، وجدت أيهم عاجزا عن فتح الباب... ثم فجأة ظهرت الجدة وأجبرتنا على دخول المطبخ، وأثناء الفطور أمسكتني جدتي وأنا أسرق مكعبات السكر وأخبئها بجيبي، توقعت أنها ستخبر أمي لا محالة لكنها ابتسمت وسمحت لي بأخذ المزيد.

فتح جدي باب المنزل أخيرا وسمح لنا باللعب خارجا، وأنا أغادر البيت أوقفني جدي وملأ جيب سروالي بالملح وأخبرني أنه كان يفعل هذا مع والدي عندما تعطيه جدتي السكر(فقد لمحها و هي تسمح لي بأخذ السكر)، لعبنا أمام المنزل لبعض الوقت ثم اختفى كل من أيهم و فريال، ولأن الجو ضبابي عانيت لأصل إليهما ثم جرت الأمور بسرعة لدرجة أني أعجزعن تذكر تفاصيلها، كنت متجها نحوه عندما رأيته ينقلب إلى

الوراء ويسقط داخل البئر، وحينها جريت نحوه ورميت بنفسي خلفه، كانت بئرا وسخة موحلة وقد علق أخي بوحلها وحاصرته المياه ولم أستطع فعل شيء غير سحبه، ولحسن حظنا وجود فريال هناك فقد كان صراخها سببا في نجاتنا واحضار جدي وأبي وبعض رجال القرية القريبين وإخرجانا.

"أيهم أيها الأحمق جعلت أمي تخاف كثيرا ذلك اليوم ".

...

ما رأيك أيها القارئ؟ من منا على حق؟ ومن منا كان سرده للأحداث أكثر واقعية وأكثر قربًا للمنطق؟

"صحيح أن روايتي تبدو غامضة لكنها الحقيقة، فسر لي يا أدهم وفسر للقارئ ما رأيت أنا؟ كيف أرى القمر دمويا بينما تراه أنت ثلجيا؟ ولا تخبرني كعادتك أنني درامي وأحب اختلاق القصص، وأن زجاج نافذة الغرفة لم يكن سليمًا، وأني كنت أراه من زاوية تشوهه لذلك بدى لي مختلفا. لم تنكر الأشباح التي رأيتها تحوم حولك إلى جانب ذلك السواد؟ وتحاول اقناعي دائما بأن ذلك السواد عبارة عن تفاعل السكر بجيبي مع حمض الكبريت الموجود بالبئر كما درسنا بالثانوية، ثم... لم أخذ ذلك السواد شكلا مخيفا أشبه بوحش جائع؟!"

" هلوسة طفل تحولت لمرض نفسي مزمن..."

هلوسة... جنون...قناعة

أخيرا فتحت عيني، شعرت بثقل على صدري حاولت القيام لكنني لم أستطع النهوض، لأكتشف لاحقا أني مدفون تحت أكثر من ثلاث أغطية صوفية. منعتني أمي من التحرك، وطفقت تهمهم بكلماتها الكثيرة المتقطّعة فتارة تسألني عن صحتي ثم تحمد الله وتعود لتسأل عن حالي... جلت بعيني في الغرفة، كان أدهم مستلقيًا غير بعيد ينظر إليّ غير مصدقٍ أني لازلت على قيد الحياة، أردت القيام نحوه وسؤاله عما رأينا وقبل أن أفعل انحنى أبي يقبل رأسي ويقول: "ليس هناك شيء، لا أحد يتبعك... اِهدأ"

يبدو أني هلوست كثيرا قبل أن أسترجع وعيي كاملا، عدت للنوم وفي الصباح كان كل شيء عاديا وتأجلت عودتنا للمنزل بسبب الحادث الذي وقع. بدا الأمر عاديا طوال اليوم الثاني ولم أحادث أخي كثيرا، في الحقيقة لم أتكلم مع أي شخص والكل رأى الأمر عاديا بعد ما مررت به من خوف داخل ذلك البئر.

صار وقت العشاء، حضرت جدتي الكثير من الأكل وأرسلت منه للجيران شكرًا على مساعدتهم لنا، وإبعادا للشر كما سمعتها تقول لوالدتي ولعمي الذي قال أنه "اِخراج معروف" عن نجاتي أنا وأدهم من الغرق في البئر. جلست للطاولة بجانب أخي الذي لم يبدُ عليه أي تغيير، أردت إمساكه من كتفيه وهزه وسؤاله عما حدث، عن الأمر الذي رأيناه، عن الأمور الكثيرة التي لا أفهمها...

لم أجرأ على فعل ذلك، فكلما أردت القيام بالأمر راودني شعور الخوف وأتجمد، تماما مثلما كنت أحس داخل البئر، يسيطر عليّ الأمر ويفقدني القدرة على النطق. فريال الغبية كانت تراقبني كالنسر بعينيها الكبيرتين، بدت مخيفة، وأكثر ما أخافني تلك المرأة الواقفة خلفها بنصف وجهها المشوه. فقدت كل حواسي وكل ما اذكره أنى أوقعت الملعقة وبكيت كطفل صغير لم يتجاوز السنة، لم أستطع الإشارة اليها ولا اِخبارهم وواصلت هي ابتسامتها غريبة الشكل.

نقلت للمشفى تلك الليلة، وارتفاع درجة حرارتي جعل الاطباء يرجحون إصابتي بالتهاب السحايا، لكني سرعان ما عدت لبيتنا وظل جداي يزورانني بين الفينة والأخرى. تغيرت حياتي لم أعد أخرج من غرفتي كثيرا ولم تفارقني هي للحظة، كان أدهم هو الوحيد الذي أخبرته عنها، لكنه سخر مني وضحك علي، وحذّرني من ذكر الأمر لأمي حتى لا ينتهي الأمر بي عند معالج نفسي وقد صدقته فيما قال، فأبي مثال الرجل العصري المثقف الذي يخالف معتقدات أهله ويصنّفها في خانة الخرافات، فطالما منع أمي من الاستماع لقصص جديّ حتى لا تتأثر بتفكيرهم القديم حسب رأيه.

مضى الكثير من الوقت وأنا أكتم سر الرفيقة التي لم تكتفي بالتحديق إليّ فقط، بل شاركتني قصتها وقصص من معها، وهنا قارئنا ينتهي الكتاب الذي كان رهانا بيني وبين أخي ومن يدري قد يكون له جزء آخر...

دخل أدهم الغرفة وأغلق الباب خلفه، نظر لأخيه الذي كتب آخر حرف ورمى قلم الحبر قريبا منه

ــ هل أنهيت؟

ــ تقريبا، بقيت بعض الرتوشات الأخيرة. أود أن أخبرك أني مسرور جدا لعرفتي لرأيك فيما حدث سابقا.

ــ ألن تدعني أقرأ ما كتبت بعد مغادرتي؟

ــ ليست بالأمور المهمة، لا تشغل بالك.

ــ لا أصدق أني سايرتك في الأمر، ظننت أننا وضعنا الأمر خلفنا منذ زمن.

ــ لكنك خسرت الرهان قبل أيام وعليه (رفع يده بمسودة الكتاب) هذا صار موجودا ولا يمكنك تغيير الأمر.

ــ أخفه في مكان ما، لا أريد أن أصير مهزلة أمام الجميع، (أخرج من جيبه سيجارة ثم قام بنفضها قبل أن يشعلها) هيا قم العائلة مجتمعة بالأسفل، كم سنة مرت منذ آخر لقاء لك معهم.

ــ ربما عشر أو اثني عشر سنة (أشار لما يشبه الغبار الأبيض على ملابس أخيه) ألازلت تسرق السكر؟!

ــ لا... غيرت رأيي... الملح ألذ بكثير (تنهد) هيا، فريال أيضا هنا وقد أتت مع خطيبها فلا تحرجها أمامه كما كنت تفعل في الصغر.

ــ فريال الغبية، لم تتزوج بعد؟! لا تقلق... مادامت تبعد عني عينيها الكبيرتين المخيفتين فلن أعلق على مظهرهما.

وفي صالة البيت الواسعة كانت العائلة كلها مجتمعة حول الجدة التي أصابها الخرف بعد سنتين من وفاة رفيق دربها، نزل الأخوان جنبا الى جنب وهما يبدوان صورتين متطابقتين أربكت الجميع وقد ارتديا نفس طراز البدلة والحذاء.

انحنى أيهم لجدته يقبل يدها ورأسها :"كيف حالك جدتي؟"

رفعت حاجبيها وقد بدت عليها الصدمة

ــ أدهم حبيبي ... متى عدت؟! قالت أمك أن المجندين الجدد لا يسمح لهم بالزيارات.

اقترب أدهم وجلس على ركبته اليمنى

ــ جدتي... أنا أدهم، هذا أيهم عاد من جامعته البعيدة ليراك.

هزت برأسها

ــ عدت من بلاد الكفار أخيرا... (ضحك الجميع لحين قاطعتهم) أين عديمة الضمير تلك (وصرخت بأعلى صوتها) فرياااااال.

اقتربت منها كنتها لتضع وسادة خلف ظهرها: فريال في المطبخ ستأتي بعد قليل فارتاحي.

ابتعد كل من أدهم وأيهم عن الجميع، وراحا يتأملان من حولهم في دهشة وقليل من الحنين للحظات عائلتهم الكبيرة، التي لم ينعما بها كثيرا، فبعد سن العاشرة أرسل كلاهما لمدرستين خاصتين مختلفتين اختار بعدها أدهم سلك الجيش، بينما سافر أيهم الى رومانيا ليدرس الحقوق بجامعة أيوان كوزا.

أدهم: ماذا ستفعل بشهادتك هنا؟ هل تنفع دراسة قانون رومانيا هنا؟

أيهم: واصل سخريتك يا أخي، شهادتي في الحقوق وليس القانون، هناك اختلاف... ولعلمك لا أنوي استخدامها لأنها لا تطعم ولا تغني من جوع في عالمكم الثالث هذا.

ــ عالمنا الثالث؟ ... أهلا بك اذن الى عالمنا الثالث اتمنى لك إقامة ممتعة.

تقدم منهم رجل ثلاثيني يرتدي ملابس رياضية أنيقة ونظارات شمسية بنية اللون على رأسه، وبيده كأس عصير شُرب نصفه، تحدثا معا بصوت خافت: من غريب الأطوار هذا؟

ــ مرحبا، أنا أدعى سمير خطيب ابنة عمكما فريال.

أدهم: تشرفنا.

أيهم: شرفت منزلنا (وبصوت خافت) وافق شن طبقة.

سمير: كنت أود أن أسألك هل الهجرة لأوروبا فعلا صعبة كما يصورونها؟

بينما بقي أدهم فاغرًا فاه مندهشًا، ضحك أيهم في سره :يليق بفريال فعلا (رفع صوته مجيبا) إذا وجدت من تستدين منه ثروة وخالا يستقبلك هناك فلن تكون الهجرة صعبة.

سمير: أخبرتني فريال أمرا كهذا، أحسدك على والدك الذي وقف بجانبك، (استطرد) أتوقع أنه لم يكن صعبا إعادة المال، كم استغرقك الامر لفعل ذلك؟ عامين؟ ثلاثة؟...

حدّق التوأم ببعضهما للحظة ثم ضحكا معًا وأجاب أيهم :يمكنك قول ذلك.

رفع سمير يده ووضعها على كتف أيهم: تشرفت بمعرفتك، سأكون هناك بقرب حموي المستقبليين.

عندما ترك سمير المكان، كانت أول ردة فعل من أيهم أنْ نفض كتفه ثم خطف السيجارة من يد أخيه وأخذ نفسًا عميقًا: هل هو رأيي وحدي أم أنّ هذا الرجل فعلًا يفتقر لأدب الحديث.

أدهم: منذ متى تدخن؟

ــ منذ دخولي هذا العالم الثالث الذي لا يعلم فيه أقربائي أني لم أسدد من ديني لأبي شيئًا.

ــ تعال معي للمطبخ فريال هناك، عليّ إعطاؤها بعض الأشياء، وهي فرصة لتلتقيها لأنّي لا أظنها ستخرج للصالة في وقت قريب.

سارا معا وعند باب المطبخ التقيا والدتهما: "أنت وهو ابتعدا عن الطريق، أدهم فريال سألت عنك".

لم تنتظر منهما جوابا واصلت طريقها وبيدها صينية الفواكه، دخل أدهم أولا وخلفه أيهم الذي وقعت عيناه على فتاة متحجبة تقف على رؤوس أصابعها للوصول الى رف الخزانة العالي.

ساعدها أدهم بإحضار علبة الخردل، فشكرته ثم استدارت وابتسمت لأيهم :أهلا ابن عمي، مضى وقت طويل، فكيف حالك؟

لم تكن نفس الاستجابة من أيهم الذي فقد القدرة على النطق للحظات وكل ما يفكر فيه: "أين العينان المخيفتان؟ أين القصيرة؟ وأين عدم التناسق في وجهها؟!"

أدهم: أيهم، بم أوصيتك قبل قليل؟

أيهم: آه... أجل... أهلا فريال... لقد كبرت (تراجع عما قال) أقصد كيف حالك؟

فريال والضحكة لا تفارق محياها: الحمد لله السؤال عنك (لم تنتظر سماع جوابه فقد وجهت بقية حديثها لأدهم) وابن عمي المفضل، هل أحضرت ما أوصيتك؟

ــ حسنا، سأكون صريحا معك لم أجد الكثير من الأدوية الذي طلبتها، أحضرت ما استطعت.

ــ لا بأس، شكرا جزيلا لك... جعله الله في ميزان حسناتك، أين هي؟

ــ إنها فوق، بالغرفة في المكان المعتاد.

ــ أنا مشغولة الآن، قبل مغادرتي سأمر لأخذها.

أيهم: هل أنت مريضة؟

ابتسمت له وهي تمر من أمامه للخروج من المطبخ بينما أشار هو بسبابته للباب سائلا أخاه: "هل تتجاهلني؟"

أدهم: فريال ممرضة وهناك نقص في بعض الأدوية في المستشفيات الحكومية، لذلك أحضر لها من الثكنة في بعض الأحيان (سكت قليلا ثم أضاف) وأجل الواضح أنها تتجاهلك.

بعد نصف ساعة كان الجميع في الصالون يرتشفون القهوة وهم يستعيدون ذكريات قديمة يضحكون على أكثرها، وعينا أدهم لا تتحرك عن سمير خطيب فريال الذي كان يجلس قبالته.

أيهم: يبدو أني لست الوحيد الذي لا يطيقه إذن.

أدهم: سمير شخص جيد متعلم مثقف، حاصل على شهادة ماستر في المحاسبة، بالمختصر لا بأس به.

أيهم: أتحاول اقناعي أم اقناع نفسك؟ انظر إليه يتدخل في أمور عائلية لا يعرف عنها شيئا، كم مرّ خطوبتهما؟

ـ أرى أنك تشعر بالغيرة منه، أم أنك استكثرت على فريال أن تُخطب وتتزوج.

ـ ماذا تقول؟! ليس الأمر كذلك، أعني فقط انظر (تلعثم) ليس...ليسا ملائمين لبعض، لا من حيث الشكل ولا المضمون.

ـ وهل هي عريضة مقدمة للمحكمة؟ لم لا تقر أن فريال أعجبتك ولهذا لم تعد تطيق سمير.

أصدر أيهم ذلك الصوت الذي ينم عن عدم مبالاته: "بففف...معقول؟!... أنا تعجبني فريال الغبية (سكت للحظة أمام نظرات أدهم الحادة) ربما تفاجئت قليلا فقط... أعني توقعت أن أرى فريال الغبية التي أعرف وقد تمددت قليلا بمرور السنوات، لقد تغيرت كثيرا عيناها الكبيرتان المخيفتان صارتا متناسقتين مع وجهها الممتلئ، كان أنفها كبيرا والآن يبدو صغيرا متلائما مع وجنتيها، تلك الغبية التي كنت أعرف لم يكن لديها وجنتان ولا كتفان واضحان ولا حتى خصر...

جلس والده على ذراع الأريكة: خصرُ من؟!

تلعثم أيهم بينما أجاب أدهم بصوت عال وهو يقف: "خصر إحدى الرومانيات التي جعلته يحيد عن مساره الذي أرسلناه من أجله".

ضحك الجميع بينما عجز أيهم عن النظر لوالده واكتفى بالقول: "سأجعلك تدفع ثمن هذا يا أدهم".

بعد مرور بعض الوقت غادر غالبية الحضور، ولم يبق سوى فريال وأبيها بالإضافة لخطيبها ليستشيروا عمها في بعض الأمور التي تخص تحضيرات الزواج، أما بالنسبة لأدهم فقد ذهب ليستحم بينما دخل أيهم غرفته.

غرفة أيهم بسيطة في ديكورها، محتوياتها بسيطة، سرير منفرد بجانبه خزانة بابها عبارة عن مرآة كاملة تعكس مكتبا صغيرا عليه أجندة وقلم حبر، والكثير من الأقلام الجافة إضافة الى كرسي خشبي على ذراعه فوطة مرمية دون ترتيب.

تمدد أيهم على سريره وبيده مسودة الكتاب الذي شاركه أدهم في كتابته، وضع الوسادة تحت رأسه بعد أن طواها، مد قدميه على طول السرير ورفع المسودة عاليا. بدأ يدقق فيما كتبه أدهم، قرأه عدة مرات وكل مرة يتنهد إلى أن أطل وجه من خلف المسودة: هل تصدقه؟

انتفض أيهم من مكانه وأسقط المسودة

ــ أرعبتني... من فضلك هلا أوقفت هذه الطريقة الغريبة في الظهور.

جلست الفتاة الجميلة قبالته على السرير، كانت ترتدي ثوبا أقل القول عنه أنه عادي وبدائي، كان شعرها البني القصير يغطي نصف وجهها المشوه، تنهد أيهم وهو يمرر يده على بشرة وجهها الناعمة

ــ أقدر أنك تخفين الجزء المشوه ولا تظهرين غير هذا الجمال.

اكتفت بضم يديها حول أصابعه

ــ كيف حالك؟

أبعد يديه وقام من على سريره

ــ على ما يرام، سواء أكنتم حقيقةً أو وهمًا سأصل حتما لجوهر الأمر ذات يوم، فلو تبين أنكم حقيقيون فسأفعل ما بوسعي لمساعدتكم ...

قاطعته

ــ ولو وجدتنا وهمًا؟

جلس على الكرسي الذي يقابله ووضع يديه خلف رأسه

ــ سأحصل على المساعدة اللازمة لأشفى.

وقفت قبالته وابتسمت وللحظة ظهرت أسنانها البيضاء

ــ كيف ستساعدنا؟

ــ لا أدري، حاليا أفكر في كتابة قصة كل فرد فيكم، ربما لو وصلت أصواتكم للآخرين فسيساعدكم ذلك على اِيجاد السلام والاختفاء... (أنزل يديه من خلف رأسه وضمهما معا) على الأقل هذا ما أشاهده في الأفلام.

ــ تعبت وأود أن أستريح، أتمنى أن تنجح بهذا الأمر.

خرج أدهم من الحمام بالفوطة مربوطة على خصره وسار نحو غرفته وفي الرواق التقى والدته

ــ هل تظن نفسك في الثكنة بين رفاقك؟! ابنة عمك وخطيبها هنا بالأسفل... منذ انضمامك للجيش فقدت لباقتك وصرت مستهترا في تصرفاتك...غير معقول.

بقي ينظر إليها دون أن يرد عليها لأنه يعلم مسبقا أنها ستذكره بكل المرات التي بكت فيها منذ التحاقه بالجيش وابتعاده عن المنزل، وخوفها كل مرة تسمع عن مشادات مع عناصر الإرهاب، قاطع صمته صوت أبيهم وقد أطل من غرفته ويده على مقبض الباب...

ــ فريال لا تزال هنا؟ ألم يغادر الجميع؟!

ــ بقي عمك بالإضافة لفريال وخطيبها، إنهم يتحدثون عن أمور تخص تحضيرات الزواج... وهي ستبقى للمبيت عندنا الليلة (أكملت بصوت خافت) عل المسكينة ترتاح من طلبات جدتكما التي لا تنتهي، (رفعت صوتها مجددا مشددة في الكلام) فضعا احترام هذا البيت وضيوفه من أقصى أولوياتكما.

ــ حاضر أمي. (قال أدهم ذلك وأكمل السير لغرفته)

كانت غرفته مختلفةً قليلًا عن غرفة أخيه، فنور الشمس يدخلها بشكل كاف والخزانة ببابين، ولا مكتب فيها بل مجرد نضدٍ صغيرٍ عليه ساعة ونظارات طبية بجانبها هاتف ذكي إضافة لبعض الأوراق النقدية التي تتوسط رخصة السياقة (الذي جعلها كحافظة وثائق).

عند دخوله الغرفة توجه لسرواله المرمي على حافة السرير، أخرج من جيبه سيجارة وضعها بفمه، ثم بدأ البحث في الجيب الآخر عن الولاعة، لكنه توقف وأمال رأسه قليلا كمن يحاول الاستماع لصوت بعيد... أخرج يده من جيب سرواله ورماه خلف كتفه... ليسمع صيحة عالية كأنما صراخ أحد يحترق.

ــ لا تظهري خلفي بهذه الطريقة يا ذات الوجهين.

وعلى الأرض خلفه، كانت الفتاة ذات الوجه المشوه تجلس على ركبتيها وكلتا يديها على وجهها، بينما تصاعد الدخان وقد أخذ لونا رماديا به بعض البريق الفضي، صوت تأوهها بدأ يخف إلى أن سكتت أخيرا.

استدار إليها وهو يشعل سيجارته ثم يرمي بالولاعة على السرير: اختفي لعنةُ الله عليك.

رجع صوت النحيب الخفيف وقد وضعت يديها على الأرض ورفعت رأسها فيظهر جزء وجهها المشوه بكل وضوح بينما غطى شعرُها النّصفَ الجميل

ــ ألن يخفَّ كرهك لي؟

جلس على ركبة واحدة وقد قرن حاجبيه وعض على طرف السيجارة بقوة

ــ ليس باستطاعتك إخافتي ولا خداعي، فأنا لست أيهم.

نظرت إليه في تحد وقد بدأ لون البؤبؤ في عينها يطغى على لون القزحية العسلي ثم تجاوزه للبياض فصارت كلها سوادًا

ـــ تعتقد نفسك أحسن منه؟!

أبعد السيجارة عن فمه ونفث الدخان بوجهها وقال ببرود:

ـــ لستِ أسوأ شيء أراه في حياتي.

ارتكز على ركبته وقام متجها للخزانة يبحث فيها عن شيء يلبسه بينما انتقلت هي وجلست على سريره وضمت ركبتيها بذراعيها: لم لست تصدقني؟ (عاد صوت النحيب)

وما كادت تكمل كلامها حتى صرخت وارتمت على الأرض تتحسس جسدها بيديها وقد تطايرت الشرارات الفضية وعم الدخان الغرفة ليخف تدريجيا ويظهر أدهم واقفا غير بعيد عنها وبيده كيس كتب عليه ملح الطعام الغني باليود

ـــ ارحمي نفسك من الألم وابقي بعيدة عن أشيائي.

دخلت فريال الصالون تحمل بيدها صينية قهوة. وضعتها على الطاولة المستطيلة، وجلست بجانب عمها.

سمير: مرت على الخطبة حوالي شهرين، والحقيقة يا عم لازلت غير جاهز بعد بالإضافة لذلك لم أتعرف بعد على خطيبتي بالطريقة اللازمة، لذلك كنت أفكر ألا نقيم العرس هذا الصّيف ونؤجله للعام القادم.

نظر إليه أبوها بعينين حادتين: تعرف ماذا بالضبط؟ أخي ما رأيك؟

ضم والد أدهم يديه: الكلام الأول والأخير لك ولفريال، أما إذا أردتم رأيي فلا أرى مانعًا من أن يكون العرس هذا الصيف.

دخل أيهم مبتسما: هل تسمحون لي بمشاركتكم؟

أشار له عمه بالجلوس: تفضل أدهم.

فريال: أبي هذا أيهم.

جلس أيهم بجانب سمير: ماذا تريد أن تعرف عن ابنة عمي؟ سأكون مفيدا في هذا الأمر كثيرا.

رفعت نظرها إليه وبدت جدّ غاضبةٍ ومع ذلك لم تتكلم واكتفت بمد يدها لصب القهوة.

سمير: لا أعتقدكم قد فهمتم قصدي، منذ خطبتنا لم يتسنّ ليَ الحديث إليها بشكل كافٍ، فهي تظل بالمشفى وأنا بالعمل، ولم نتحدث عن تفاصيل زواجنا وما بعده ولا عن تحضيراته ومستلزماته.

أيهم: أنا مع سمير في الأمر، عليهم أن يتحدثوا جيدا حتى يتفقوا ليتجنبوا المشاكل التي قد تظهر بعد زواجهما.

بدأ الإبريق يرتجف في يدها وهي ترجعه للصينية بينما تكلم نفسها: ماذا تعرف أنت أيها المتحاذق؟ درست كلمتين خارج البلاد وها قد أتيت تتفلسف فيما لا يعنيك.

أفاقت من شرودها عندما تكلم أدهم: ما بها ابنة عمي منزعجة؟ (قال ذلك وهو يجلس على ذراع الأريكة بجانب أخيه) فكري يا فريال، الصيف سيكون فرصة لنتعرف أكثر على عائلة سمير.

تنهدت: ما رأيك أبي؟

والد فريال: أخبرتك سابقا هذه حياتك وأنت حرة في اختيار ما يلائمك.

فريال: إذن سنؤجل الحديث عن العرس لما بعد انتهاء الصيف.

سمير: لا تفكري كثيرا فقد اخترتك دون جميع النساء ولن يغير تأجيل العرس شيئا من ذلك.

أماءت برأسها وعلى شفتيها ابتسامة متكلفة، بينما تكلم أدهم: عمي، فريال ستبقى اليوم عندنا وغدا سأوصلها للعمل وأعيدها بعد انتهاء دوامها الى المنزل فلا تقلق.

قام العم ومعه سمير مغادرين ورافقهما أدهم ووالده الى الباب ولم يبق بالصالون سوى أيهم وفريال.

أيهم: لم أنت محتارة كثيرا؟ هل هو الخوف من العنوسة كما أتوقع؟

راحت تفك الخمار عن رأسها وقد تغير مزاجها وقالت بتهكم:

ــ عزيزي... المرة القادمة أبقِ رأيك لنفسك.

لم يرد عليها لأنه لم يسمع حرفا مما قالته، فقد كانت عيناه مثبتتان على شعرها الطويل بخصلاته الشقراء المصبوغة، انتبه بعد ان قامت وتركت الصالون: هل هذه الفتاة متحجبة أم لا؟

قام يتبعها، لكن اخاه أوقفه في الرواق

ــ متى تتعلم ألا تتدخل بشؤون غيرك؟

ـ كان مجرد رأي ...أسألك فريال متحجبة أم لا؟

ـ متحجبة ألم ترها تضع خمارا على رأسها؟

ـ بلى لكنها نزعته فور مغادرة والدها.

ـ فريال لا تتحجب أمام أفراد العائلة والآن ضع ما سأقوله حلقة بأذنك، اِكبر وانضج ولا تتصرف برعونة لو سمحت.

رفع أيهم يديه عاليا مستغربا: ما مناسبة هذا الكلام؟

ـ لست بحاجة لأن أكون توأمك لأعرف أنك معجب بها ولا تنوي خيرا.

ـ أنا أعجب بفريال الغبية؟ لابد أنك تمزح! أنا فقط أحاول مجاراة ما يحدث بالعائلة... هذا كل شيء.

أطلت والدتهما من المطبخ: أدهم...أيهم... حبيباي، فريال لن تنظف كل هذا بمفردها فساعدها وسأنظف بقية البيت.

أيهم: هل أساعد بأي شيء.

ـ جلالتك لو سمحت لا تتدخل، نحن من العالم الثالث ولسنا من مستواك.

ضحك أدهم وامتعض أيهم من كلامه: يبدو أن بعض الامور في هذا البيت لا تتغير، فالواشي يبقى واشيا طوال عمره.

انصرفت والدتهما فدخل أدهم المطبخ، كانت فريال تتعامل مع الأواني بخشونة

ــ أيهم فتى مدلل ويتكلم في ما لا يفقه لكن أنت! ظننتك تعرف تماما ما أريد.

ــ ابنة العم لا تغضبي، تكلمت في مصلحتك لا غير.

دخل أيهم وسحب كرسيا جلس عليه يستمع لكلامهما يحلل ويفسر ويكلم نفسه: فريال غضبها في تزايد مستمر ولا يبدو أن كلام أدهم قد غير من الأمر شيئا.

فريال: أنا لست أريد قصص حبٍ ومشاكل عشاق، لا أريد حبا يأخذني للجنة ... أنا فقط أريد بعض الراحة فقد تعبت.

أدهم: أنا لن أناقشك في هذا الأمر فرأيي تعرفينه منذ زمن، اعطي حياتك فرصة قد تندمين لا حقا.

ـ أنا أندم ...مستحيل.

ـ الأمر ليس بهذا السوء، تصوري أن تسرّعي الزواج الآن، ثم تكتشفين لاحقا أنه سيء الطباع والخلق.

ـ لن تكون أسوأ من طباع جدتك الخرفة التي عليّ تحملها لوحدي.

وقف أيهم ووضع يده على كتف أخيه: مهلا ضعت بينكما (وجه كلامه لفريال) أيكون سبب زواجك هو التخلص من جدتي.

امتلأت عيناها بالدموع فاستدارت حتى لا تواجههما: وما تعرف أنت عن معاناتي معها؟ ... يا إلهي تعبت.

غمزه أدهم بأن يسكت ولا يتدخل والتفت إليها ممازحًا في محاولة للتخفيف عنها

ـــ فريال، هناك دائما خطتنا البديلة، إن تراجع سمير عن الزواج بك، فانا هنا لأتزوجك.

مسحت دموعها واستدارت إليه مبتسمة: سوف نرى أين توصلنا خططك... سأساعد عمتي بالصالون.

خرجت فالتفت أيهم لأخيه

ـــ ما يفوتني؟ على حسب ما أذكر لا يوجد أحب لجدتي من فريال.

ـــ ومن قال العكس؟ جدتي صارت خرفة ومسؤوليتها كلها تقع على عاتق فريال.

ـ بنات العم بعائلتنا بعدد شعر الرأس لم وقعت القرعة عليها؟

ـــ لدي عمل وثرثرتك تعطلني.

ـــ أجل أستطيع معرفة نوعه (أشار لكومة الأواني المتسخة) ثم ما قصة زواجك بها في حالة تراجع أيا كان اسمه.

ابتسم أدهم وتحولت البسمة لقهقهة أربكت أيهم

ــ بدأت أشك أن السحر انقلب على الساحر، ومطاردة فريال لك في الصغر ستصير مطاردتك لها الآن ...أوبس... هل قلت هذا بصوت عال؟ ...

بعد يومين غادر أدهم المنزل ملتحقا بعمله في الثكنة، أما أيهم فلم يكن يغادر البيت كثيرا، الأمر الذي جعل والديه يتصلان بأدهم يسألانه إن كان أخوه بخير، فاكتفى بالقول أنّ أيهم يحاول أن يتأقلم مع الوضع الجديد رغم أنه أكثر الناس معرفة بأن أيهم يحب الانطواء داخل غرفته يكلم ماضيا قديما.

تلك الليلة جلس أيهم الى مكتبه الصغير ينظر لمسودة كتابه وتكلم فجأة دون أن يرفع رأسه: اقتربي، يمكنك الجلوس قبالتي على السرير.

ـ لست وحدي.

رفع رأسه فرأى ولدا يتشبث بثيابها، بدى في السابعة من العمر وكان أصهبا بلونِ شعرٍ يميل للبرتقالي ونمشٍ يغطي جزء وجهه العلوي

ــ لا بأس بذلك، تعودت على وجوده، فقط احرصي على أن يبقى هادئا.

أماءت برأسها موافقة بينما زاد تشبث الولد بها، توجهت نحو السرير وجلست في حين ركع الولد على كلتا ركبتيه ووضع رأسه على فخذها وهو ينظر لأيهم.

تنهد أيهم وهو يحاكي نفسه: نظرات هذا الشيء لا تعجبني على الاطلاق (ثم خاطبها) أنا في مرحلة سرد قصصكم.

لمعت عينها ذات الأهداب الطويلة: هل ستفعلها حقًّا من أجلي؟

ـ أجل سأفعل هذا من أجلكم، عليّ التخلص من ملاحقتكم الدائمة لي، فلدي حياة أخرى عليّ عيشها بعيدا عنكم... (تنهد قبل أن يتم جملته) دعينا في الأهم، فلنتحدث في قصتك كبداية.

بدأت تمسح على شعر الولد الصغير الذي أغمض عينيه وقد تشبث بثوبها أكثر: سبق وأخبرتك كل شيء عن قصصنا كلنا.

شعر أيهم بالضيق في صدره وعجز عن التنفس وهو يرى امرأة تجلس هي الأخرى على السرير ورضيعا يحبو نحو الولد ويجلس وليس بعينيه لون من غير السواد... ثم أشباه أجساد راحت تجلس في كل

بقعة فارغة من الغرفة، فتح أيهم زر قميصه العلوي: أخبرتني وعمري لا يتجاوز العاشرة، والرعب الذي كان يتملكني في ذلك الوقت لا يسمح لي بتذكر كل تلك الأمور، سأكتب المقدمة وستروين قصتك بينما أكتبها وهذه المرة ستخبرينني بكل التفاصيل.

تحدث الولد بعد أن فتح عينيه: لم التركيز على التفاصيل الآن؟ هل دخل أدهم رأسك أخيرا وأقنعك أننا هلوسات لعقلك الباطن؟

اكتفى أيهم بالنقر بقلمه على الورقة دون رفع رأسه فلم يلاحظ يد الفتاة وهي تشد شعر الولد وترمقه بنظره مخيفة جعلته يجفل.

بدأ أيهم يكتب

"عانيت طوال العامين وأنا أخفي مخاوفي، خصوصا بعد أن فقدت ثقة أدهم، وبانتقالي للمدرسة الخاصة بدأت مرحلة جديدة من الوحدة بعيدا عن عائلتي وأصدقائي، وما صدمني أكثر، هو أنني لم أحظ برفيق سكن. أخذت وقتا لأتأقلم، ووحدتي قربتني أكثر للأمر الذي كنت أهرب منه... إلى أن سألتها يوما إن كانت تريد مني شيئا..."

أميرة بين الأشواك

بدأت قصتي قبل زمن طويل، ربما أطول مما قد تتخيله، في ذلك الوقت لم تكن حال الأرض كما اليوم، بل كانت بساتين خضراء وحدائق غناء وحقول قمح صفراء، ولم يكن بالمنطقة كلها غير قبيلتنا وما أعرفه أننا نزحنا من الشرق بعد أن غار الماء في الأرض لذا أول ما فعله كبار القبيلة كان حفر الكثير من الآبار.

ولدت بليلة رعدية مزقت فيها الرياح صوت الهدوء كما قيل لي، لم يكن مولدي بالأمر الهام في القبيلة لكن بكبري صرت حديث الكل، فجمالي وتناسق قوامي كانا قد سحرا كل من بها وطمع بوُدّي الداني والقاصي، كان أبي من سماني "تينيبرا"، وهو شيخ طاعن في السن أما والدتي -على حد علمي- فهي إحدى زوجاته الخمس المتوفيات...

أمضيت حياتي كأي بنت في القبيلة بين رعي الغنم وغزل الصوف وحمل الأخشاب، كنت حسناء قبل هذا الوجه المشوه وفتاة بسيطة كل همها اللعب مع أقرانها الى أن صرت بعمر الزواج، والزواج بقبيلتنا بيد كبيرها وهو من يقبل ويرفض الزيجات، فلا أحد يختار دون موافقته، إلى أن عاديت عرفهم وتمنيت رجلا غريبا عنا...

كان شابًا قويا مغوارًا قد مر بقبيلتنا يبيع السهام والرماح، لا يلبس مثلنا ولا يتصرف بطباعنا، لا يجلس إلا إذا نظف مكانه ولا يشرب في غير إنائه. عرفت لاحقا أنه ذو شأن وقد انقطعت به السبل، وكم شعرت بالراحة يوم عرفت أنه يبادلني الحب وأنه على استعداد لمعاداة الجميع وفعل المستحيل لأجلي.

كبار القبيلة لم يعجبهم أن طلبني لنفسه فهو غريب وأعرافنا تحتم على الزواج بمن يختاره شيخ القبيلة. كنت خلف الستار أسمع ما يقولون، أحببت كل كلمة قالها ووثقت بكل نَفَسٍ أصدره، وسمعت كل كلمة نابية قالها شباب القبيلة في حقه، ورأيت كل الغيرة والحقد يصدر من قريناتي. عندما تحدث شيخ القبيلة وأصدر قراره بخصوص زواجنا، لم تسعني فرحتي فقد أمِنَ الغريبَ وقبل تزويجه من تنيبرا الحسناء.

صرت ألتقيه عند حافة تلك البئر ولا ألقي بالا لكلام الفتيات ولا لتغزلهن به. بدأ موسم تزويج حسناوات القبيلة، كل ليلة بعرس، كانت تلك الأفراح فرصًا لأرى وجه الرجل الذي عشقته وهناك أيضا رأيت وجه غريمتي...

كان من أعراف قومنا أنه إذا ولدت لشيخ القبيلة بنت فهي تخفى عن العيون لحين تصير بعمر الزواج، وفي موسم الزواج تظهر للعيان فيحق لها اختيار أي رجل تريد ويصير قريبا من الكبار بزواجه منها، وعندما رأيتها تنظر إليه بعينيها اللتان تدعيان البراءة، وصغر سنها الذي يجعل أي رجل يتمناها. كرهتها وجعلتني الغيرة أشارك الفتيات الرقص، وكم أنا نادمة لأن ذلك جعل الجميع يتمنى قربي ولم أستفد من الأمر برمته غير عداوتها وحقدها عليّ، فقد اختارت بآخر ليلة الرجل الذي تريده زوجا كان الجميع متحمسا لمعرفة الرجل الذي ستختاره... ولسوء حظي فقد اختارت ذلك الرجل الغريب.

وقع شيخ القبيلة بهذا في حيرة، ما بين العرف الذي يمنح ابنته حق الاختيار، وبين وعده لحبيبي الغريب... فما كان منه إلا أن سأله عن رأيه، وكم ازداد خفقان قلبي وحيرة كل أهل القبيلة وهم يسمعونه يقول أنْ لا مغير لرأيه، فكلمته وعد، ووعده كسيفه إن سُل من غمده فلا يعودنَّ إلا أن يحقق ما اضطر للخروج لأجله.

في يوم الغد وصل القبيلة خبر أن بلادا يسمى سكانها بالفندال قد وصلوا لسالداي، وعلى القبائل التلاحم لإبعاد هذا الخطر، وليطفأ شيخ القبيلة نار غضب ابنته أرسل حبيبي الغريب وسط جمع من شبان القبيلة لاستطلاع الأمر، ودّعته تلك الليلة وفي طريقي التقيت ابنة شيخ القبيلة ومعها جمع من أبناء عمومتها، لم يكن لدي مفر منها، فالنظرة المخيفة في عينيها أربكتني... وفي لمح البصر صرت تحتها ولم أرى غير ذلك الحجر يسقط على وجهي لأحسَّ بعظام وجهي تتهشم... فقدت الشعور بفكّي ثم بكامل جسدي، وأنا ملقاة على الأرض كنت أسمع مختلف الشتائم التي تلقيها عليّ، كنت شبه غائبة عن الوعي فاقدة لإدراكي لكن منظر خنجرها يمزق ثيابي ويخترق صدري لا يزال محفورا بذكرتي... و لم يشف كل ذك غليلها فقامت برميي داخل البئر وتركتني أغوص في مياهه أتذوق طعم دمائي...

لبثت هناك زمنا أراقب جسدي يتحلل وأنا أسمع أخبار القبيلة دون قدرتي على الاستنجاد أو الصراخ، علمت من حكاوي البنات عند حافة البئر أن غريبي وشباب القرية لن يعودوا وأن القبيلة ستترك المكان لأن قوما همجا في طريقهم إليها وبعدها لم يعد هناك أي شيء، اختفت الحركة من حولي واختفت كل الأصوات، ولم يعد لي غير مراقبة تحول ماء البئر من صاف الى كدر.

رمى أيهم قلم الحبر وتنهد

ــ لم أكن اعلم كل هذا (رفع نظره وكانت تلك الأجسام تختفي واحدا تلو الآخر، ولم يبق غير تنيبرا والولد الأصهب) تنيبرا أنا أجهل ما يمكن أن أقول لك.

ابتعد الولد ووقفت تنيبرا ومشت نحو أيهم: لست أسمع اسمي منك كثيرا، حقيقة الأمر أنى لم أسمعه منذ زمن.

ــ يكفي كتابة لليوم، عليّ الاتصال بأدهم منذ مغادرته لم اسمع عنه شيئا.

أشارت تنيبرا برأسها للولد واختفى الاثنان، بينما ترك أيهم غرفته ونزل للصالون يبحث عن هاتفه ليتصل بأخيه، وما ان بدأ بطلب الرقم حتى رن هاتفه فضحك وهو يجيب

ــ هل تصدق كنت على وشك الاتصال بك؟

على الجهة الأخرى من الخط

ــ أصدقك فهذا أسرع رد احصل عليه، كيف حال أمي وأبي؟

ـ ينغصان عليّ حياتي في غيابك، لا أدري ما الذي ينتظرانه مني بالضبط.

ـ لا عليك، أين صرت في ما تكتب؟

ـ أنت آخر شخص كنت أنتظر أن يسألني هكذا سؤال.

ـ ما المانع؟ أود قراءته لأرى ما تخفيه مخيلتك الخصبة، وأتمكن من إيجاد مختلف التناقضات به.

ـ أنت أحمق.

(ضحك أدهم)

ــ اسمع أنا أقود السيارة سأمر بفريال أسلمها بعض الأدوية ثم أمر ببيت عمي لأرى جدتي.

ــ سنلتقي ببيت عمي إذن.

ــ اتفقنا.

وصل أدهم باب المشفى واتصل بفريال وعندما لم ترد تمتم قائلا: إن وقعت يوما بمشكلة فالسبب قد يكون إمّا أنتِ وإمّا أخي.

مال بجسده للمقعد الخلفي للسيارة وأخذ من عليه كيسًا بني اللون ثم ترجل واتجه صوب المشفى، ألقى التحية على الحارسين بالمدخل الرئيسي وواصل طريقه إلى حيث توجد ابنة عمه.

أخرجت فريال السماعة الطبية من أذنها وتوجهت للطبيبة بالحديث: لا بأس بالضغط.

تكلمت الطبيبة وهي تنظر لصور الأشعة: وكل شيء هنا يبدو سليما.

فريال: هل لديك مناوبة ليلية اليوم؟

ضحكت الطبيبة: وجدت من يبادلني المناوبة.

ــ أنت فعلا محظوظة، هل من عريس على الأبواب؟

ــ شعر فاتح اللون، عيون خضراء وقامة 1.65 متر، طبيبة مقيمة في سنتها الأولى ولا عريس على الأبواب وتسمين هذا حظًّا. (رن هاتف فريال) أجيبي على الهاتف أو غيري رنته يصيبني بالصداع.

ــ ابن عمي، لابد انه وصل سأجيب بعد أن أنهي تركيب المصل.

ــ براحتك، أنا عليّ الاسراع لألحق بالحافلة.

غادرت الطبيبة الغرفة وهي تنزع مئزرها الأبيض ثم قامت بطيه

ــ يا إلهي كدت أنسى! (بحثت بجيب المئزر وأخرجت سوارا مكوّنًا من كريّات حمراء مشوهة الشكل، ارتدته بمعصمها الأيمن) لو تركته هنا لقتلتني أمي.

وفي رواق المشفى جلس أدهم ينتظر فريال بعد أن وضع هاتفه بجيبه وأخرج سيجارة، لكنه تدارك وأعادها بعد ان تذكر أنه بمستشفى، نفض يديه من الملح ثم تكلم بصوت داخلي: يا فريال أسرعي، لا أحب الجلوس هنا والانتظار.

بدأ بضرب قدمه بالأرض وراح يحدّق بالمنشور المعلق على الحائط قبالته ثم سرعان ما أخفض نظره لأسفل وقد توقفت قدمه عن الحركة، راح الولد الأصهب يبادله النظرات بابتسامة ساخرة مخيفة مما جعل أدهم يفعل المثل في نوع من التحدي ثم وقف ووضع يده اليمنى بجيبه بعدما بدل الكيس لليسرى مما جعل الولد يجفل ثم ينظر يمينا ويسارا ليختفي.

ضحك أدهم ومشى بالرواق ليسأل عن فريال وقد ملّ الجلوس. في آخر الرواق كانت الطبيبة في طريقها للخروج وهي تحيّي بيدها كل ممرضة تلتقيها لحين اصطدمت بأدهم ولامس معصمها كتفه فسرت في كليهما شحنة كهربائية جعلتها تصرخ وهي ترى أحجار سوارها تنفلت عن بعض.

كانت ستقع للخلف لكنه رمى الكيس الذي بيده وامسكها من مرفقيها، بقيت تنظر اليه وتتمتم: ك.كه...كهر...كهرباء.

رغم الشرارة التي أحس بها إلا أن برودة اعصابه لم تتأثر: هل أنت بخير؟

استعادت توازنها ورتبت ثيابها وقد علت الحمرة وجنتيها: أنا أعتذر، لم أكن منتبهة.

انحنت للأرض تجمع أحجار سوارها وبقي هو يحدق بها: هل تحتاجين مساعدة؟

ـ لا، أجل، أقصد لا عليك ...سأجمعها بمفردي.

أدخل يده اليسرى بجيب سترته وانحنى هو الآخر إلى الأرض والتقط إحدى تلك الكريات وبخفة مررها على أنفه: رائحة الزئبق.

وقفت ووضعت الأحجار بجيب المئزر المطوي بيدها: كيف؟!

حمل كيسه من على الأرض وهناك لمح ممرضين بالرواق يدفعان سريرا عليه مريض فأمسكها أدهم من ذراعها وأخذها على جنب وهناك وصلت فريال: أهلا أدهم.

رد عليها ساخرا

ــ أتيت باكرا، كان بإمكاني انتظارك أكثر.

ــ أخبرتك أنّني مشغولة... أرى أنكما التقيتما، أدهم هذه صديقتي "حجيلة"

دون سابق إنذار وعلى غير عادته دوت ضحكته في المكان

ــ ماذا قلتي؟ اسمها حجيلة.

واصل ضحكته في حين اغرورقت عينا الطبيبة

ــ ما المضحك في اسمي؟

بالكاد تمالك نفسه

ــ أنا آسف، فقط اسمك غريب نوعا ما، أنا فعلا أعتذر.

ضربت فريال ذراعه غير مصدقة تصرفه

ــ ما بك أدهم؟ هل أَعَارَكَ أيهم جزءًا منه في طريقك إلى هنا.

تنهد أدهم بعد أن اخفى ضحكته ومد يده للطبيبة

ــ أنا أدهم ابن عم فريال.

كانت ستصافحه لكنها أحجمت

ــ عذرا... لكن أخاف أن تحصل شرارة أخرى.

رفع حاجبيه

ــ أي شرارة؟

صافحته

ــ لا شيء، أعتذر مجددا عن اصطدامي بك قبل قليل.

نظرت فريال لساعتها

ــ ستتأخرين على الحافلة.

ــ معك حق.

قالت ذلك وانطلقت تجري في الرواق، وبقي أدهم يلاحظها الى حين قاطعته فريال

ــ في حياتي كلها لم أرك تضحك بذاك الشكل الهستيري.

تنهد

ــ لا عليك، امسكي الكيس ستجدين به" دايسينون" و"افلوكارديل".

ـ و" سانتروم"؟

ـ غير موجود، سألت عنه في بعض الثكنات الأخرى من خلال معارفي، وأخبروني انه مفقود منذ مدة.

تأففت...

ــ شكرا لك على كل حال واشكر الطبيب عن كل مريض يساهم في نجاته، أدهم طلب آخر لو سمحت.

أدهم: ومتى انتهت طلباتك؟ ستوقعينني بالمشاكل ذات يوم.

ـ هناك دواء آخر يحتاجه طفل رضيع، اسمه "ديفوكسين" وهو غير متواجد ولا يوجد إلا في الخارج، فهلّا طلبت من أيهم أن يتصل بأي شخص من معارفه في رومانيا علّه يرسله إلينا.

نظر اليها بتعالٍ

ــ لم لا تسألينه؟ هيا سأوصلك للبيت وسيكون هناك وحينها يمكنك الطلب منه.

ــ لدي مناوبة ليلية، لا يمكنني المغادرة... ثم هو أخوك فلم لا تطلب منه أنت ذلك.

وصل أيهم بيت عمه، فتحت له زوجة عمه الباب. كان رأسها ملفوفًا بمحرمةٍ خضراء اللون وقطع من البطاطا تطل من على جانبيها. دخل المنزل وكان أول ما سمعه صوت بنات عمه يصحن، كل واحدة من هن تطلب من الأخرى أن تستجيب لنداء الجدة، أشارت له زوجة عمه بالجلوس في الصالون، فسألها ــ ألم يصل أدهم بعد؟ من المفترض أن ألتقيه هنا.

أجابت زوجة عمه: ليس بعد، تفضل... سأغيب قليلا وأعود عمك بالمتجر لن يتأخر، تصرف وكأن البيت بيتك.

دخل وكانت جدتّه متمددة على طول الأريكة

ــ مساء الخير جدّتي.

مدّت ذراعيها تودّ عناقه

ــ أهلا أيهم بنيّ، متى عدت من فرنسا؟

عانقها

ــ رومانيا جدتي وليس فرنسا (جلس بجانبها) كيف حالك وكيف صحّتك؟

ــ الحمد لله، جدّك لم يخبرني أنك ستعود في الصّيف، لم يعد يعيرني أيّ اهتمام.

حدّث نفسه: نحن بالشّتاء، ثمّ لا يبدو انها تذكر أن جدّي قد مات.

مالت على جنبها واخرجت عصاها من تحت الأريكة ونكزته: يا حمار تظنني نسيت أنك لم تحضر جنازة جدك، سمعتك تقول لأمك بالهاتف أنك لن تأتي.

تلعثم وهو يراها على وشك ضربه بعصاها المدببة: جدتي أنا أدهم، أيهم هو الذي لم يحضر كان يدرس ببلاد الكفار.

تركت العصا ومدت يديها مجددا لتعانقه

ــ حبيبي أدهم ألم تأت فريال معك؟

ــ لا لم تأت.

ــ (تنهدت) إيييييه يا بني، هل تعلَم أني أحبّك وفريال أكثر منهم جميعا، كنتَ مَنْ أحيا فينا الأمل، اثنتي عشر حفيدة من البنات، ثم أتيت أنت الحفيد الأوّل الذّكر يا حبيب قلب جدّتك.

كانت النّظرة على وجه أيهم لا تُفسّر، اكتفى بحضنها والتمتمة: هن سبع بنات فقط، وأنا لم لا تحسبينني ألم اولد معه (ابتعد عنها وكلمها) جدّتي هل سيطول غياب عمي.

أخفضت صوتها ووضعت يدها على فمها كأنها تخاف أن يسمعها أحد

ــ عمك نسيني منذ أن تزوج تلك الحرباء، رأيتها تضع له سحرا مأكولا ومنذ ذلك الحين لم يعد عمك يكلمني، أحب أمك أكثر وقد أخبرت فريال وهي قالت أن تلك الحرباء تتحول في الليل وتهرب من المنزل.

كل ما أراده أيهم أن يهرب لكن زوجة عمه دخلت وصينية القهوة بيدها وقد سرحت شعرها للخلف وتخلصت من المحرمة

ــ تفضل يا بنّي، كيف حالك؟ منذ عودتك لم تأت لتزورنا.

قدمت له فنجان القهوة لكن جدته ضربت الفنجان بعصاها فانكسر

ــ لا تشرب، وضعت لك به سحرا لتتزوج فريال.

تجمدت قدما أيهم بينما قامت زوجة عمه تنظف المكان وهي تبادل حماتها جملة من النظرات الغاضبة.

قاد أدهم سيارته من أمام المستشفى وفي طريقه رأى حجيلة بموقف الحافلات أخفض سرعته ثم توقف وأنزل زجاج سيارته، حاول أن يشير إليها لكنها كانت مركزة في كتاب صور على غلافه جسم اِنسان مشرح.

زمر بسيارته فانتفضت: هل أوصلك؟

ـ لا شكرا، أنتظر الحافلة.

لم يصر عليها، قاد سيارته مبتعدا وأوقفها غير بعيد ثم ترجل منها وتوجه نحوها

ــ تمانعين لو انتظرت معك؟

كانت من النوع الخجول ولطالما تجنبت الرجال لذلك لم تدر بما تجيبه، فاكتفت بالإيماء إليه برأسها بينما اتكأ هو على عمود الإنارة وأخرج من جيبه سيجارة بدأ في تدخينها وقد أعاد إحدى يديه لجيبه، لاحظته لبعض الوقت ثم استجمعت شجاعتها وتكلمت

ــ التدخين مضر بالصحة.

نظر إليها فارتبكت، أخذ نفسا عميقا من سيجارته ثم نفثه من أنفه

ــ أهذا ما تقوله فتاة تضع سوارا من الزئبق حول معصمها؟؟

ضحكت واخفت فمها بيدها

ــ هل جننت؟ هل تراني مجنونة لأسمم نفسي بالزئبق وأصاب بالسرطان؟!

ضحك هو الآخر

ــ أمضيت وقتا غير قصير بالجبال أثناء بدايات عملي وأعرف الزئبق جيدا عندما أراه (أخرج يده من جيبه وبها إحدى كريات سوارها) هذا زنجفر وهو يحتوي كمية معتبرة من الزئبق.

ـ ز... ماذا؟!

وصلت فريال لمكان وقوفهما

ــ أدهم، ألم تغادر بعد؟

ـ ألم تقولي أن لديك مناوبة ليلية؟

تنهدت

بلى، اتصلت أمي، ويبدو ان جدتي جن جنونها... المهم سويت وضعية المناوبة وسأعود للمنزل.

وصلت الحافلة فاستأذنت حجيلة وغادرت بينما راقبها أدهم لحين سيرها.

فريال: أين سرحت؟ ألن توصلني؟؟

انتبه إليها متداركا سرحانه

ــ بلى، السيارة هناك.

وفي بيت العم، كانت الجدة تهدد كل من أيهم وكنتها بالعصا وتصرخ بأعلى صوتها

ــ فريال، فريال أحضري الحبل.

أيهم: جدتي، جدتي بالله عليك ما دخل الحبل؟

دخلت فريال مسرعة ورمت حقيبتها لتتجه نحو جدتها وتعانقها: أنا هنا جدتي، اهدئي.

أجلستها على الأريكة وأخذت منها العصا واستدارت لأمها: من أعطاها العصا؟ الم أطلب منكم رميها.

أيهم: فريال ابنة عمي الجميلة الطيوبة شكرا لك.

نظرت إليه بغضب

ــ مرحبا بك شرّفت.

دخل أدهم خلفها وقبّل رأس جدته التي صارت كالحمل الوديع.

ــ كيف حالكم جميعا؟

ردت جدته

ــ رائحة ذاك السم تنبعث منك، عندما يأتي والدك سوف أخبره أنك تضيّع مصروفك على السجائر.

جلست فريال وهي تحضن جدتها وتحلق الكل حولها ثم انضمت أخوات فريال للجلسة، راح أيهم يحدق بهن الأمر الذي لم يعجب فريال

ــ هل اعطيك صورا للجميع؟

انتبه لها بعد ان لكزه أدهم

ــ كنت فقط أقارن تغيّر أشكالهن.

ضحكت الصغرى

ــ وما وجدت؟

ــ لم تتغيرن كثيرا، ما أقصده بمجرد رؤيتكن عرفت كل واحدة منكن، على عكس فريال أخذت ربع ساعة أسأل نفسي أين رأيت هذا المخلوق!

ضحك الكل عدا فريال التي رمقته بنظرة غضب، كانت نظرة أقرب للحزن منه للغضب
ــ معك حق، خصوصا أنّ هذا المخلوق كان يظن أنك لازلت بالمدرسة الخاصة، حتى علم بعد مرور شهر كامل بأنك قد غادرت...غادرت دون أن تكلف نفسك حتّى عناء توديعه.
اختفت أصوات الضّحك وحل محلها صمت طويل لم يجرأ فيه أيهم على النظر إليها، ولولا دخول العم ما كانت تلك الحظة لتنتهي.

تمدد أدهم تلك الليلة على فراشه يقلب حجر الزنجفر: يا لها من شرارة! (ضحك) ويا له من اسم!!
فتح عليه أيهم الباب ودخل
ــ هل أنت مشغول؟
جلس أدهم على حافة السرير
ــ هل تود سؤالي عن فريال؟
ــ (ارتبك) لا، لم أكن أريد أن أسألك عن فريال، أردت فقط معرفة هل تمر بالمستشفى كثيرا؟
ــ (ابتسم) تقصد الذي تعمل به فريال؟ (وبصوت داخلي) اِلعب يا أيهم العب، لدي الليل بطوله لهذا.

ـ هو مستشفى واحد بالمنطقة.

ـ لا أمر كثيرًا، فقط إذا كنت سألتقي فريال. لم تسأل؟!

ـ أنت لم تخبرني أنّه قد تم خطبة فريال، سمعت هذا فقط عندما عدت.

ـ هل أفترض أننا لسنا نتحدث عن فريال؟

فقد أيهم أعصابه وبدأ الحديث بسرعة جعلت كلامه غير مفهوم

ـ أنا لا أفهم، لم تتصرف معي بتلك الطريقة؟! أتدري أنك عندما انتظرتني بالسيارة وأردت مكالمتها عند الباب وسألتها ما سبب تغير طباعها معي صَفَقَت الباب بوجهي؟

عاد أدهم ليتمدد

ـ لأنها ممرضة، والممرضات نكدات.

ـ سأجد طريقة لمعرفة سبب كرهها المفاجئ لي... (أراد تغيير الموضوع وهو يرى ابتسامة أخيه الساخرة) ما تحمل بيدك؟ (رمى الحجر نحوه فالتقفه وراح يديره بيده يحاول معرفة ماهيته) ما هذا بالضّبط؟

ـ بالنسبة لشخص يحاول الكتابة عن الأشباح يفترض أنّك تعرفه، هذا حجر زنجفر.

ـ (أماء برأسه) ماذا يفترض أنه يفعل؟ وما علاقته بما أكتب عنه؟!

ـ مصدر الزئبق، أنت تعرف ما الزئبق أليس كذلك؟ (أماء له بنعم) يستخدم في طرد الأرواح الشريرة والأشباح التي تكتب عنها.

ـ لم أكن أعلم. (استدرك) بالنسبة لشخص لا يصدق بهذه الأمور أنت عليمٌ جدا.

ـ في بدايات تجنيدي شاركنا الدرك في تتبع عصابة تهرب الزئبق بين العلمة وسكيكدة، وهناك أخبرني الزملاء أنهم يستخدمونه في التنجيم، وأن العصابات ينقبون عن الزنجفر بالقرب من أماكن معروفة بكونها براكين قديمة، ثم يستخرجون منه الزئبق.

ـ إذن هذه تذكار من العملية.

ابتسم دون أن يشعر

ـ تذكار أجل... من تلك العملية لا.

صَفَقَت حجيلة الباب وهي تدخل غرفتها تتمتم: لا يرون بالبيت غيري، لن أحضِّر العشاء فقد تعبت.

توجهت للخزانة وما إن فتحت بابها حتى سقطت الملابس عليها، اختارت منامة بلون أزرق رسم عليها الكثير من الدببة البنية لتلبسها وأعادت البقية بشكل غير مرتب. كانت قد بدأت بتغيير ثيابها عندما دق باب الغرفة:

ــ أريد شحن بطّارية الهاتف.

ــ أنا اغير ثيابي، انتظر... ألا أحصل على خصوصيتي في هذا البيت أبدا؟!

غيرت ملابسها وفتحت الباب

ــ هاته أنا سأضعه لك يشحن.

أعطاها هاتفه وهم مغادرا ثم تذّكر أمرًا فألتفت إليها

ــ أبي يطلب منك المجيء، يريد الحديث معك قليلا.

ــ أخبره أني متعبة سأرتاح قليلا وبعدها أكلّمه.

أغلقت الباب ودخلت الفراش ورفعت الغطاء لتضعه على رأسها، ثم شغّلت هاتف أخيها ودخلت متصفح النت وبدأت تحدث نفسها: فلنرى ما هذا الزنجفر... (هجأت الكلمة وهي تكتبها) ماذا؟!!! غير معقول! ... الزنجفر هو السينابار! ...يا حجيلة يا هبلة كم عاما أمضيت تدرسين بالجامعة وترددين كبريتيد الزئبق؟؟!!!

قفزت من مكانها وخرجت من الغرفة متجهة للصالون أين كانت أختها ذات العشر سنين مستلقية على بطنها تراجع دروسها ووالدها يشاهد التلفاز، سلّمته الهاتف وهي تضرب برجلها الأرض: انظر...

قبل أن تتم كلامها كان اخوها قد جرى نحوها

ــ لا تسمع لها يا أبي دعني أشرح لك (وجه لها الكلام) أعطيتك الهاتف أمانة لتضعيه بالشاحن لم أنت تعبثين به؟ (أطل برأسه على الهاتف وعندما رأى أنه المتصفح، احمر وجهه) تدخل خاطئ... (رسم ابتسامة بريئة وهم بالخروج) أكملوا ما كنتم تناقشون.

نزع والده نظاراته ورمقه بنظرة مخيفة

ــ لو أجد بهاتفك أغنية واحدة سأكسره على رأسك.

ابتعد اخوها بينما تسلم والدها الهاتف

ــ لست أفهم عليك، اشرحي.

جرت نحو الغرفة واخرجت بقية أحجار السوار وعادت مسرعة للصالون ووضعتها على الطاولة

ــ أمي أعطتني سوارا فيه مادة سامة تصيب الانسان بأمراض خبيثة.

رفع نظاراته ثم عدلها ونادى بأعلى صوته

ــ نادية (لم يتلق جوابا) يا نادية دعي ما بيدك وتعالي.

دخلت والدتها تمسح يديها بمنديل

ــ لم تصرخ (نظرت للطاولة ودوى صوتها) يا إلهي! هل تعلمين كم دفعت ثمنه؟ ألم أخبرك أن تحتفظي به، ستمسك العين الحسود الآن ولن تحصلي درجات جيدة في دراستك (وجهت الحديث لزوجها) أتعلم أمس التقيت بنات عمك وعندما أخبرتهم أن ابنتي طبيبة لم يذكروا اسم الله حتى!

صرخ بها زوجها فسكتت

ــ يكفي، كم مرة طلبت منك أن تتوقفي عن فعل مثل هذه الأمور؟ سأجن من وراء أفعالك.

تمتمت وهي تنظر لابنتها

ــ غدا يذهب والدك للعمل وسأريك (رفعت صوتها) حسنا آخر مرة أفعلها.

كورت المنديل بيدها وعادت للمطبخ بينما أشار الأب لابنته بالجلوس

ــ تعالي واجلسي جانبي، يا بنيتي بالراحة على والدتك فهي تظن أنها ستحميك وتساعدك بهذه الطريقة.

ـ يا بابا ستقتلني ذات يوم بشعوذاتها، تصور أني لم أعلم بأنه زئبق... كنت لأصاب بكل أنواع الأمراض وأصيب المرضى الذين أعالجهم.

ربت على رأسها وتنهد

ــ لكنها أمك، وصدقيني حاولت كثيرا تغييرها وعندما لم أنجح ...(قاطعته)

ــ رضيت بها كما هي (قبلت يده ووقفت) غدا لدي مناوبة ليلية لذلك عليك المجيء لاصطحابي في اليوم الموالي.

ــ لا بأس، اذهبي لغرفتك.

في صباح اليوم التالي دخلت حجيلة المطبخ وكانت والدتها تحضر لها علبة الطعام، سلمتها لها دون أن تكلمها، تململت حجيلة وهي تقول: أمي لا تعامليني هكذا.

ــ أنا احاول حمايتك وحفظ مستقبلك من العين وجزائي أنك تذهبين لوالدك تشتكينني؟!

ــ يا أمي لقد جعلتني أضع مادة خطيرة قد تقتلني، أترضين أن أموت وأنا في هذا العمر الصغير.

رفعت والدتها حاجبيها

ــ تقولين عمرا صغيرا؟! أقرانك بأولادهم وأنت لم يخطبك أحد للآن... أفيقي يا ابنتي.

ــ (تنهدت حجيلة) الأمر ليس عيبا.

ــ ماذا ينقصك؟ جمال وحسن وشهادة من أعلى المستويات وتربية حسنة (اغرورقت عيناها) لا أخوك صار ناجحا ولا أنت تزوجت، عين وأصابت عائلتي وربّي (أخرجت من عُبِّها تميمة) لفّي هذا حول معصمك.

ــ ما هذا؟

ــ حجاب يحميك من الشر ومن أولاد الحرام، فأنا لا أحب عملك في المناوبات الليلية وحولك من الموتى وال... (اقشعر بدنها فلم تكمل كلامها) استغفر الله العظيم.

لم تشأ الدخول معها في جدال فاكتفت بسؤالها

ــ ماذا يوجد داخله؟

ــ آيات قرآنية وبعض الملح والأعشاب علمتني جدتّك كيف أصنعه، ويا ويلك لو أخبرت والدك.

ربطت الحجاب حول معصمها حملت علبة الطعام ثم غادرت البيت، وأمام بوابة المستشفى التقت فريال

ــ حجيلة يبدو أنك أحضرت طعاما لذيذا، أستطيع شم رائحته.

ــ أواثقة أنها رائحة طعام وليس رائحة بخور؟

ــ كم مرة عليّ قولها لتفهمي، اصبري فلا حل آخر.

ــ كيف حال جدتك؟

ــ حالتها لا تتحسن وصارت تخترع القصص، لا أمي ولا أخواتي استطعن التعامل معها.

وقفت حجيلة على رؤوس أصابع قدميها لتنظر خلف فريال

ــ هل ذاك ابن عمك؟

استدارت ووضعت يدها على وجهها تتمتم

ــ أيهم... مالذي أحضرك إلى هنا الآن؟

كان أيهم يرتدي بدلة سوداء بقميص أبيض وكلتا يديه بجيبي سرواله ويسير بكل تأنٍ وابتسامة مشرقة على شفتيه.

ــ صباح الخير.

حركت حجيلة أنفها وقد قربت رأسها منه ثم كلمت نفسها

ــ رائحة عطره مميزة، أمس كانت رائحته مختلطة برائحة السجائر... مهلا لابد أنه أخوه التوأم الذي أخبرتني فريال عنه.

قطع حبل تفكيرها صوت فريال المرتفع قليلا على غير عادتها في الكلام

ــ ماذا تريد يا ابن العم؟

ــ ما الذي تريدينه وليس أنا، ألم تطلبي من أدهم أن آتي لأنك تحتاجينني في موضوع ما؟

عضت شفتها السفلى قهرا متحدثة بصوت داخلي

ــ يا أدهم لم ترسل لي هذا الأحمق.

قرب رأسه من رأسها

ــ هذا الأحمق يدعوك لفطور خفيف قبل بداية عملك، ما رأيك؟

ارتبكت فريال واحمرت وجنتاها وقد صار أنفه قريبا من أنفها وقبل أن تقول أي حرف جذبتها حجيلة وأخرجتها من ذلك الموقف الذي لا تحسد عليه: عرفيني على ابن عمك.

ــ (تنهدت) أيهم هذه صديقتي حجيلة... حجيلة هذا أخو أدهم التوأم الذي...

ــ (قاطعتها) الذي درس برومانيا (مدت يدها لتصافحه) تشرفت بمعرفتك.

مد أيهم يده لمصافحتها وعندما لامست يده يدها صدر صوت انكسار كأن شخصا ما داس على زجاج هشمه، استغربت فريال

ــ ما هذا الصوت؟

أيهم: أي صوت؟

حجيلة وهي تنظر لساعتها: فريال أنا عليّ الدخول وأنت اذهبي مع ابن عمك، (أخذت من يدها الكيس) سأحافظ عليه جيدا لحين عودتك.

لم تمنحها فرصة للكلام أو الرد فقد جرت لتدخل المستشفى بينما بقيت فريال واقفة سارحة إلى أن خاطبها ابن عمها

ــ هل ستطيلين الوقوف؟

ــ أيهم أنا لا أريد الذهاب معك لأي مكان.

ــ لماذا؟

ــ لأني ببساطة لا أطيقك، لم أعد اطيقك منذ زمن بعيد.

ــ سنتحدث في الأمر، اتبعيني.

وقفت حجيلة خلف باب المشفى الكبير تنظر إليهما مبتسمة: فريال يا هبلة لديك أولاد عم وسيمون وانت انتهى بك الأمر مع سمير.

مشت فريال خلفه

ــ أين تأخذني في هذا الوقت المبكر؟ لدي عمل.

أبطأ في سيره لتلتحق به

ــ مازلت ثرثارة كعادتك، هذا الأمر لم يتغير.

ــ أنت تسير بسرعة، لا أستطيع مجاراتك.

ــ لو أنك تنقصين ثرثرتك وتوجهين تلك الطاقة لقدميك لتجاوزتني.

وصلا محل حلويات كان قد فتح للتو، دفع بابه وأشار لها بيده لتدخل. جلسا على طاولة صغيرة وجعلتها نظراته إليها تتوتر

ــ أيهم أنا طلبت من اخيك أن يخبرك أني بحاجة لدواء غير متواجد حاليا بالجزائر وليس لدي أدنى فكرة لم أرسلك إلي.

وضع النادل أمامهما قائمة لأنواع من الحلويات

ــ هل اطلب لك تيراميسو بذوق الشوكولا (غمزها) أرأيت، لم أنس نوع الحلوى التي تحبين.

ــ (نظرت للنادل) كعكة الليمون لو سمحت.

أعاد له القائمتين

ــ لا بأس، تيراميسو بذوق الشوكولا وكعكة ليمون وأي عصير لو سمحت، (ذهب النادل فالتفت إليها) صرت تحبين الليمون أم أنك تعاكسينني فقط.

ــ (ضحكت) تبدل الكثير في ذوقي منذ ذلك الوقت.

وضع مرفقيه على الطاولة ولامس ذقنه

ــ أستطيع حدس ذلك عند النظر لسمير.

ــ (تحولت ضحكتها لعبوس) ماذا تقصد؟!

اعتدل في جلسته

ــ لا داعي لتأويل كلامي، كانت مجرد ملاحظة بل جملة عابرة، لنعد لموضوعنا... لدي أصدقاء خارج رومانيا يمكنهم إرسال الدواء الذي تطلبين لكن بشرط.

ــ (أكملت عنه) وجود وصفة، أعلم ذلك، سأطلب من والد الطفل تصويرها إلكترونيا ثم سأرسلها لك.

أوصل النادل طلبهما فبدآ الأكل

ــ أخبريني عن حياتك، التمريض وسمير وجدتي الخرفة، ماذا يجري في حياة فريال بشكل عام.

ــ جدتك الخرفة؟ على الأقل كن لبقا في الحديث عنها.

ــ لا تغيري الموضوع، كيف التقيت بسمير؟

حركت الملعقة بشكل دائري

ــ عادي، أتى للاستعجالات ذات مرة ليعالج تورما في ذراعه وأعجب بي، وبعدها ظل يتردد لرؤيتي لحين قبلت به ثم تقدم لأهلي.

ــ والتمريض؟

ــ لم أجد بشهادة البيولوجيا عملا فأجريت تربصا وصرت ممرضة، وأنت؟

ــ أنا؟ (انتبه) آه تقصدين دراستي وما شابه... أمضيت السنوات بالجامعة بين قليل من الدراسة والكثير من التسكع (رفع رأسه وكانت عيناها قد جحظتا فاستدرك) ليس الأمر كما فهمت، ليس ذلك النوع من التسكع (ارتبك) كيف أشرح الأمر، الندوات الثقافية والمهرجانات الأدبية والصالونات ومعارض الرسم.

ــ وهل استفدت شيئا؟

ــ الكثير من الأشياء... التي لا يمكنني استخدامها لإيجاد عمل مستقر هنا.

ــ وماذا تفعل الآن؟ سمعت من والدتك أنك صرت منطويا وقليلا ما تخرج.

ــ أنا أعمل على كتابة رواية، بل كتاب.

ــ هل يمكنني أن أسأل عمّا يتحدث؟

ــ آخذ تجربة من حياتي وأقوم بإضافة الكثير من المؤثرات عليها ثم أبني منها موضوعا، قد يحقق كتابي الكثير من الإيرادات حتى أنني جعلت أدهم يشاركني الأمر.

ــ أتصور أنك تقصد بتجربة حياتك "حادثة البئر".

ــ متفاجئ من كونك لازلت تذكرين الأمر.

ــ كانت أسوء تجربة في حياتي أيضا، كدت أفقد... (صمتت)

ــ تفقدين ماذا؟

ــ لا عليك، هاااا أخبرني أكثر عن كتابك.

ــ مثلا اختلقت قصة أشباح وعلى أدهم أن يقوم بإقناع القارئ ببطلانها.

ــ (علا البريق عينيها) هل قلت أشباح؟

ــ عادة لا تكون هذه ردة فعل فتاة تسمع هكذا كلام.

ــ (ضحكت) هل تمزح؟ انت لا تعرف كم عدد القصص التي أسمعها عن الأشباح والأرواح التائهة في مشرحة المشفى، (اعتدلت في جلستها ووضعت الملعقة) هل تذكر حجيلة؟ (أماء برأسه) لديها قصص لا تنتهي عن الجن والأشباح قد تفيدك في كتابك.

ــ (تحمس لكلامها) سأطلب منها أن تروي لي ذات يوم عن تلك القصص (خف تحمسه وتنهد) أدهم يسبقني بخطوة فقد دحض فكرة الشبح في البئر، كنت قد صورت أن شبحًا أسود قد حام حوله لكنه قال بأنه كان يحمل في جيبه سكرا تفاعل مع حمض الكبريت في البئر وهو تفاعل عجيب حسبما وصف.

ــ أدهم أذكى منك على فكرة وأنت أغبى من المتوقع، فبالنسبة إلى شخص يلقبني بالغبية يجدر بك أن تعرف أنه يستحيل وجود حمض الكبريت في البئر لأنه يتفاعل مع الماء، هناك فرق بين حمض الكبريت والكبريت يا عبقري.

تجمدت نظرات أيهم بينما وقفت فريال

ــ وقت عملي على وشك البدء.

ــ انتظري، سأدفع الحساب وأوصلك.

ــ (سار خلفها يفكر) معقول؟ هل هذا يعني أن أدهم كذب علي أم أنه فعلا يصدّق ما قاله؟ (وصلا إلى المشفى فناداها)

عادت خطوة للوراء

ــ نعم.

ــ دعينا نلتقي هكذا مجددا (استدرك) من أجل الكتاب.

ــ (أماءت برأسها) لا بأس قد أزوركم هذا الأسبوع وأطّلع على ما كتبت.

بمجرد وصولها بحثت عن حجيلة وسألت إحدى الممرضات عنها فأشارت لإحدى الغرف فتوجهت إليها مباشرة، كانت جالسة على الأرض والحجاب الذي اعطتها أمها أمامها

ــ يا طبيبة ماذا يقول الناس لو رأوك جالسة هكذا على الأرض؟

ــ (تنهدت حجيلة) لم أعد أفهم شيئا! انظري الحجاب الذي أعطتنيه أمي قد فسخ، لست أدري ما كانت تضع به ولكنه صار مهشما.

ــ (مالت فريال عليها ونظرت) يبدو كأنه بلّورات، أمك بحاجة لطبيب نفسي.

ــ أواصل قول هذا، أخبرتني صباحا انه قرآن وأعشاب لكنه يبدو كزجاج.

تذكرت فريال مصافحة أيهم لحجيلة فظهر العبوس على وجهها وكلمت نفسها في طريق الخروج: مالذي تخفيه عني يا أيهم؟

ــ بدأت أشك أن ابني عمك السبب فيما يحصل، ذلك اليوم انقطع السوار واليوم تهشم الحجاب (رفعت رأسها وكانت فريال غير موجودة) يا إلهي أنا أكلم نفسي!!

وصل أيهم إلى المنزل، كان والده جالسا مع أخيه.

ــ أخيرا خرجت من المنزل، بني ضع خطة لحياتك هداك الله.

جلس أيهم بقرب أخيه وربت على كتفه

ــ البركة في أخي، أنا لا مستقبل لي حاليا.

تحدث أدهم وهو ينزل يد أخيه من على كتفه

ــ أبي كان يقول أنه يجدر بك العمل بمتجر زوج عمتي لحين تقرر ما تفعل.

ــ (وضع أيهم قدما على أخرى) متجر ماذا؟!

ــ خردة بنات (قالها وهو يبحث بجيبه عن سيجارة)، يعني لن تواجه أي مشكلة كما أن أميرة "ابنة عمتك لو كنت نسيت من تكون" من تدير المحل وستساعدك.

قام الأب من مكانه

ــ أخوك يقصد مواد تجميل، كن على قدر المسؤولية هذه المرة لو سمحت (وجه بقية حديثه لأدهم) وأنت كم مرة قلت لك لا تدخن بالمنزل ستقتلنا بسمك (أعاد أدهم السيجارة لجيبه ونفض يده مما جعل والده يرفع سبابته محذرا) وأوقف عادة أكل الملح هذه، أقرانك صار أولادهم بالحضانة وأنت تتصرف كمراهق.

ترك والدهما المكان فتحدث أيهم

ــ ما به أبي هذا الصباح؟

تنهد وتكلم باستهزاء: كان يحدثني عن صديقه وابنته التي يتمناها ألف رجل.

ــ غريب، لا أحد انتبه أني بعمرك وأني قد أرغب بتكوين عائلة.

ــ (تحدث متهكما) فريال وأخذها ذاك المسمى سمير، يعني لا أمل لك.

ــ ماذا تقصد؟

ــ قصدي واضح، فريال الوحيدة التي قد تتحمل شخصا مثلك...

ــ (قاطعه) على ذكرها، كلمتها صباحا وأخبرتني أن حمض الكبريت يتفاعل مع الماء.

ــ (همهم محدثا نفسه) فريال بدأت أكرهك (حاول إخفاء ملامحه) ماذا تقصد؟

ــ أُقصد أنها دحضت كلامك كله عن كونه مجرد تفاعل كيميائي.

ــ لازلت لا أفهم المقصود

ــ هذا يعني أن ما رأيناه كان فعلا شبحا ...

ــ (قاطعه) أنت تعني ما رأيته أنت، فأنا لم أرى شيئا، وجدت تفسيرا لما رأيت أنت فقط.

ــ تفسيرك كان خاطئا، اجلس أود محادثتك في الأمر أكثر.

تهرب منه وهمَّ خارجا

ــ سألتقي أصدقائي.

مشى خطوتين مبتعدا عندما وقف أيهم ورفع صوته: أنا لم أتوقف عن رؤيتها بعد أن غادرت المنزل، لقد مرت ثمانية عشر سنة وأنا لا أزال عالقا بنفس الذكرى.

ــ (توقف أدهم ودون أن يستدير أجاب) إذن عليك زيارة طبيب يا أخي.

ــ (انهار أيهم على الأريكة ووضع رأسه بين يديه) أنا أستطيع سماعها ومحادثتها، كيف تفسر أني أسمع منها أمورا لا أذكر أني عرفتها قبلا و...

ــ (قاطعه وهو يمسك بكلا كتفيه ليوقفه وتعلوه نظرة مخيفة) تمالك نفسك، كلهم مجرد هلوسات قديمة، لا تصدق ما يقولون ولا تعطي الأمر أكثر مما يستحق.

تركه وغادر بينما تحولت ملامح وجه أيهم من الشرود إلى الجدية

ــ أنت تكذب يا أدهم وأستطيع الإحساس بذلك.

ــ بالتأكيد هو يكذب.

نظر أيهم على جانبه الأيسر وكان الولد الأصهب واقفا وعيناه مثبتتان على باب الصالون، سأله أيهم

ــ أنت لا تتجول وحدك عادة، أين تنيبرا؟

ــ (استدار ونظر إليه بغرابة) أنت أخبرته أنك تراها وتكلمها ونصحك هو ألا تصدقهم وأنهم غير موجودون (ضحك بخبث) كيف يعرف أننا أكثر من شخص واحد.

كانت تلك الخفقة بقلب أيهم قوية جعلته يجلس ويمسك صدره

ــ أدهم لا يفعلها، أدهم اخي.

أثناء المناوبة الليلة جلست فريال وحجيلة تتشاركان الطعام وتعلقان على بقية زملاء العمل

ــ حجيلة لم لا تجلسين مع بقية المقيمين وتفضلين الالتصاق بي.

ــ لأن لديك ابنيّ عم وسيمين (ضحكتا معًا) لأني ببساطة لا أطيق تصرفات الكثيرين منهم ...(تنهّدَت) وأنت الوحيدة التي لا تعيّرني بأهلي.

رن هاتف فريال

ــ أهلا أدهم، لم تتصل الآن؟

(على الطرف الآخر من المكالمة)

ــ كوني أقل حدة في الرد على الهاتف، نحن على مائدة العشاء وأمي تريد الحديث إليك، سأضعها على مكبر الصوت...فريال ابنتي كيف حالك؟

ــ أهلا عمتي، بخير وأنت كيف حالك؟

ــ بخير والحمد لله، كيف تمضين وقتك؟

ــ أتناول العشاء مع صديقتي، وأنت عمتي ما طبختي؟

(سمعت صوت أيهم)

ــ كسكس كالعادة، لا يبدو أنه ينتهي من المنزل.

أدهم: وأنت ما عشاءك؟

ــ أنا أحضرت معي طبق بطاطا مطهوا في الفرن، وأحضرت حجيلة مقلوبة باذنجان.

ردت عمتها: بصحتكما، ضعيها على هذا الذي قاله أدهم.

أدهم: مكبر الصوت يا أمي.

وضعت فريال هاتفها على الطاولة

حجيلة: مساء الخير خالتي.

ــ مساء الخير بنيتي، أردت فقط أن أوصيكما على بعضكما ولا مرة ارتاح قلبي لمناوبات فريال الليلية.

ضحكت حجيلة: حاضر خالتي، أمي أيضا توصينا بنفس الشيء، هذه طبيعة عملنا كما أننا لسنا وحدنا بالمشفى هناك الكثير من الأطباء والممرضين وحتى المرضى.

ــ أعلم بنيّتي لكن احرصا على بعضكما.

تكلم أيهم وهو يصدر صوتا أثناء مضغه الطعام: لو حدث شيء فريال ستقوم بالواجب.

ــ كل واسكت، فريال بنيتي لا تأخذي على كلامه.

تنهّدت فريال: أعلم يا عمتي أن أيهم لم يكبر، فلا عليك.

ــ ابنتي فريال، غدا صباحا أرسل أحدهم ليحضرك إلى هنا ...

ــ (قاطعتها) لأساعدك في تعزيل البيت... عمتي غدا سأكون جد متعبة لنؤجلها لبعد غد الجمعة.

ــ أعلم، غدا تأتين لترتاحي وتبقين نهاية الأسبوع هكذا قلت لأمك.

ــ (تململت قبل أن تجيب) لا بأس عمتي، سأتركك الآن علينا العودة للعمل.

أغلقت الخط، فكلمتها حجيلة

ــ أنا لا أراك تذهبين لبقية أعمامك!

وقفت فريال تلملم بقايا الطعام

ــ لأنها تبقى وحيدة معظم الوقت، أيهم لم يكن هنا وأدهم كثيرا ما يبيت بالثكنة وقليلا ما يعود للمنزل.

كان أدهم ممددا على سريره يقرأ مقالا بهاتفه عندما طرق أخوه الباب ثم فتحه

ــ هل يمكنني الدخول؟ (لم يرد عليه فدخل وجلس على طرف السرير) أنت الآخر صرت تتجاهلني؟

ــ (ترك أدهم الهاتف) هل تلك طريقة لتكلم ابنة عمك؟

ــ كل هذا سببه فريال؟ هي تعرف أني لا أقصد شيئا غير المزاح.

ــ لا عليك، ماذا تريد؟

ــ غدا عندما تذهب لإحضارها خذني معك.

ــ لماذا؟

ــ أود التحدث مع صديقتها تلك قليلا.

ــ (انتفض من مكانه) لم تود الحديث مع صديقتها ومن أين تعرفها؟!

ــ على مهلك، أخبرتني فريال أن لديها الكثير من القصص حول الجن والأشباح، قد يساعدني ذلك في انهاء الكتاب.

همهم ثم تمدد ورفع هاتفه يكمل قراءة المقال

ــ لم أعد أجد كلمات أردّ بها عليك.

ــ كونك أخي يفترض بك تشجيعي على مواصلة البحث...

ــ (قاطعه) ها انا أسمعك، قل ما لديك.

ــ قالت إن اسمها تينيبرا وقد ماتت بالبئر الذي سقطت به.

ــ ولم وحدك تراها وتستطيع مخاطبتها...لم هي موجودة اصلا؟

ــ ليس لدي جواب، القصة التي أخبرتني محزنة جدا فقد فرقوها عن حبيبها ثم قتلوها.

ــ (لم يرفع نظره عن هاتفه) ووجهها ما سبب تشوهه؟

ــ (لمعت عينا أيهم) كيف تعرف عن وجهها؟

ــ (اقترب من أخيه) حالك لا تعجبني، سبق وأخبرتني حينما كنّا صغارا وأيضا بينما كنا نتشارك الكتابة.

ــ نسيت فعلا، لا يمكنك لومي لقد تجاهلت الأمر لوقت طويل والآن وقد بدأت البحث فيه صارت تعتريني تلك المشاعر المختلطة.

ــ أعلم أن عقلك مشوش، هل يمكنني رؤية ما كتبت للآن؟

ــ دعك مما أكتبه، غدا يوم عملي الأول ولا أدري ما عليّ فعله بالضبط.

ــ الأمر سهل تدخل فتاة تستقبلها ستسألك عن ألف علامة تجارية لا تشبه واحدة الأخرى وستنصحها بأغلى ما لديك لأنها ببساطة ستشتريها وستظن نفسها صارت أجملهن...

ــ (قاطعه) على مهلك ما كل هذه الحدة؟

بالمشفى كان الأطباء والممرضين في حالة فوضى بعد حادث سير أسفر عن الكثير من الجرحى، انحنت فريال تركب المصل وتحادث الطبيب المقيم

ــ حجيلة لم تعد بعد من قسم العظام ونحن هنا لا يمكننا التكفل بكل هؤلاء الجرحى.

رد عليها

ــ نعاني نقصًا في الدم ونحتاج متبرعين، سأضع اعلانا على موقع التواصل الاجتماعي.

ــ ما الزمر الناقصة؟

ــ تقريبا كلها (أشار لرجل فقد ذراعه وقد بدأ جسمه يتحول للون الأزرق) وزمرة "O-".

ــ ابن عمي زمرة دمه مماثلة ومن عادته التبرع سأرى ان كان بإمكانه الحضور.

أخرجت هاتفها واتصلت لكنها قطعت الاتصال عندما رأت حجيلة تدفع حمالة عليها جريح علمت في الحين أنه قد توفي.

حجيلة: ساعدني في إيصاله للـ...أنت تعرفين.

ــ هل جننت؟ لن أذهب الى هناك، كما أنهم يحتاجوننا هنا.

ــ اذن ابتعدي عن طريقي.

لم تشأ فريال تركها تذهب لوحدها فساعدتها في الدفع: لكن نعود بسرعة.

وصلتا مصلحة حفظ الجثث وهما تنظران لبعض

ــ أين عمال المصلحة؟

ــ (تنهدت فريال) لا أدري، ماذا طلبوا منك بالاستعجالات؟

ــ أن أوصله الى هنا وأتركه مع المسؤول لأننا بحاجة لكل سرير في الاستعجالات.

رن هاتف فريال فصرختا معا والتصقتا ببعض، وحينها انتبهت فريال

ــ هاتفي، إنه هاتفي...أدهم يتصل.

رفعت السماعة وكل ما سمعه أدهم صوت حجيلة وهي على وشك البكاء: اللعنة على هاتفك كم مرة طلبت أن تغيري هذه الرنة المزعجة.

ــ فريال، هل اتصلت بي قبل قليل.

ــ أنا؟ لا لم أتصل... (استدركت) أجل فعلت... اتصلت بك.

(سمعت صوت أيهم يكلم أخاه)

ــ أخبرتك فريال من النوع الغبي ...

ــ (قاطعته) قل لأخيك أن يريحنا من صوته، أدهم ابن عمي المفضل هناك جريح في حادث سير يحتاج الى دم.

ــ غدا صباحا أمر بالمشفى.

ــ ليس لديه كل ذلك الوقت، أرجو أن تأتي الآن لو أمكنك.

ــ لا بأس، سأكون هناك بعد قليل.

أغلقت الخط والتفتت لحجيلة وكانت قد رفعت الغطاء عن الجثة وراحت تنظر إلى كتفه المنفصل

ــ ماذا تفعلين؟

ــ لديه إصابة على مستوى المفصل الأخرمي الترقوي، أنظري...

قاطعها صوت رجل وهو يعيد الغطاء على الجثة: ابنتي هذا ليس وقت مثل هذه الأمور، يحتاجونك في الاستعجالات.

احمر وجهها وسارعت بالخروج من هناك وتبعتها فريال

ــ انتظريني.

وصل أدهم وهو يرتدي سترة جينز سوداء وخلفه سار أيهم مرتديا سترة من الجلد ويداه خلف رأسه، جرت فريال نحوهما

ــ من هنا (أرسلتهما مع ممرضة أخرى وعادت لعملها بجانب حجيلة وبضع الأطباء والممرضين. (سألت الطبيب بجوارها)

ــ هل من جديد بخصوص إعلانك.

أجابت حجيلة وهي تتثاءب: إعلانه لن يأتيَ بجديد قبل الصباح، لكن تم احتواء الوضع فقد أتى أقاربهم ومنهم من تبرع.

الطبيب المقيم: بقي صاحب الذراع المقطوعة.

ــ أتى ابن عمي وسيتبرع له. (ردت فريال)

نزعت حجيلة قفازيها

ــ رأيت اثنين، تشتري واحدا وتحصل على الآخر مجانًا.

ــ (تنهدت) حجيلة الوقت غير مناسب لهذا النوع من المزاح.

نظرت حجيلة لساعتها

ــ يمكننا أخذ فترة راحة لم يعد هناك ما نقوم به الآن.

تركت فريال جهاز القسطرة على الطاولة وغادرت لرؤية ابني عمها، وعند وصولها كان أيهم يمازح أخاه

ــ أنظر إلى لون دمي، كم يبدو زاهيا...

قاطعته وهي تسحب كرسيا وتجلس بالقرب من أدهم وتتأكد من الابرة بذراعه

ــ أيهم هل أتيت فعلا لتتبرع بدمك؟

ــ (اعتدل في جلسته) ماذا تقصدين؟

ــ (تنهدت) لا شيء يا ابن العم أنا فقط...

أكمل أدهم: متعبة؟ عليك أخذ قسط من الراحة.

ــ أنا أحاول سرقة بعض اللحظات، شكرا لمجيئكما فالأمر يعني لي الكثير.

أطلت حجيلة

ــ هل هناك كرسي؟

رفع أدهم نظره إليها وسرح في ملامحها وهي تدخل، كانت ترتدي ملابس الاستعجالات بلونها الأخضر وكل ما فكر به أنه يشبه زيه العسكري، قطعت يدها التي تلوح له حبل أفكاره

ــ مرحبًا.

أشار بيده إلى خده وحرك سبابته بشكل دائري

ــ لديك بقعة دم على وجهك.

مدت فريال يدها ومسحت البقعة من على وجه صديقتها

ــ لا عليك مسحتها، تعالي اجلسي مكاني.

اتجهت فريال نحو كيس الدم المعلق بجانب أيهم وقد امتلأ بينما لم يصل الخاص بأدهم للنصف.

أيهم: لايزال لدي الكثير في حالة أردت سحب المزيد.

كان الاستياء واضحا على وجه فريال التي طلبت من حجيلة موافاتها والتي قامت مسرعة وأخرجت مصباحها الطبي ورفعت جفنه لتتفقد كلتا عينيه: هل تعاني من أي مرض.

ارتبك أيهم وهو يرد: هل من خطب؟ ... لا لست مصابا بأي مرض.

ــ هل تناولت أي دواء يحتوي على الأسبرين؟

ــ لا اظن...ماذا يحدث؟

عادت حجيلة لمكانها على الكرسي بجانب أدهم

ــ لا شيء مجرد اجراء روتيني (خاطبت أدهم) هل تسمح؟ (مررت الضوء على عينيه ثم خبأت مصباحها بجيبها) ممكن تخرج لسانك ...لونه عادي (عادت لتخاطب فريال) كل شيء على ما يرام.

فريال: أيهم شكرا لك يمكنك المغادرة.

ــ عليّ انتظار أدهم فهو من يملك سيارة.

ــ اذن سيكون عليك الانتظار بالأسفل، تعال سأصحبك (كلمت حجيلة) سآخذ كيس الدم...

ــ (قاطعتها وهي تتثاءب) لا بأس سأنتظر امتلاء هذا وآخذه بمفردي.

غادرت فريال وأيهم

أدهم مخاطبا حجيلة

ــ هل كل مناوباتكم الليلية هكذا؟

وضعت قدما على أخرى

ــ أكثرها لكن هناك ما هو أسوء(تثاءبت) هل أستطيع طلب أمرٍ منك؟

ــ ما هو؟

ــ هلا أيقظتني عندما يمتلأ الكيس سأغفو قليلا...

وقبل ان تكمل كلامها اتكأت على ذراع كرسيه وغفت، أبعد ذراعه حتى لا يزعجها وراح ينظر إليها مطولا يتأمل لون شعرها المنسدل على ملابسها الخضراء

حدث نفسه

ــ ما هذه الوضعية التي تنام بها؟! قدم على أخرى ووسادتها قبضة يدها... (تنهد) ما دخلي أنا بالموضوع فلتنم كما شاءت... كيف يمكنها النوم والفوضى في الرواق تصم الأذن؟! (حكّ أنفه) عليّ الاسراع في المغادرة أيهم سيبدأ عمله صباحا وأنا عليّ ملاقاة رفاقي.

بالكاد مرت دقائق عندما ارتفع صوت رجل بالرواق يصرخ بإحدى الممرضات جعل حجيلة تقفز من مكانها وتخرج مسرعة.

سمع أدهم صوت حجيلة تطلب من الرجل التوجه للاستقبال والانتظار، ثم بدأ صوت الرجل يعلو وصوت طبيب يخبره أنه لا يمكنه التواجد هنا. وبعدها سمع صوت ارتطام، وفي أقل من ثانية كان أدهم قد سحب الابرة من ذراعه وخرج للرواق، أمسك الرجل ألصقه بالجدار بعدما لوى ذراعه. ساعد الطبيب والممرضة حجيلة على الوقوف.

أدهم: هل انت بخير؟ (شد قبضة يده على ذراع الرجل وبيده الأخرى ضغط على جمجمته لأن التصق وجهه بالجدار، أماءت برأسها بينما راح الرجل يتخبط يحاول الافلات) حركة اخرى وسأكسر ذراعك.

وصل رجلا الأمن وأخرجاه بينما سار أدهم اتجاه حجيلة: متأكدة أنك بخير، (توجه للطبيب بالكلام) كيف تسمحون له...

قاطعه الطبيب وهو يربت على كتفه: ليس باليد حيلة، بارك الله فيك.

أمسكت حجيلة ذراعه: أنظر لذراعك.

كان الدم بذراعه يتدفق بغزارة، قادته لقاعة العلاج وطهرت جرح الابرة دون ان تكلمه، ثم أخذت كيس الدم وفي طريقها للخروج وقف أمامها: أليس لديك ما تقولينه؟

أماءت برأسها دون أن تنظر إليه: بلى شكرا لك.

ــ فقط؟

ــ ماذا تريدني أن أقول؟

ــ لا أدري، لكن ردة فعلك غير طبيعية على الإطلاق.

ــ (تحدثت بصوت يشوبه البكاء) عادي جدا، أمور كهذه تحدث.

مرر يده على شعره: حجيلة لا تبكي...يا إلهي ما هذا الاسم الغريب! ... ألم يجد أهلك اسما أسهل؟ (نظرت اليه مستغربة) نونا مثلا، سأصدقك القول لا يمكنني مناداتك حجيلة سأناديك نونا.

خرج من القاعة وتركها والدموع بعينيها والضحكة على شفتيها وهي تتمتم

ــ فريال ابن عمك مجنون.

في قاعة الاستقبال جلس أيهم يرى رجال الأمن يقودون أحدهم خارجا فاستدار لفريال التي كانت تملأ أوراقا

ــ الن تغيري هذه المهنة التي تجعلك عرضة لهكذا مواقف (رمقته باستياء وقبل أن تتكلم أوقفها) لا تنظري إليّ هكذا، مؤخرا نظراتك تصيبني بالقشعريرة، يا امرأة لم تغيرت؟

ــ أنا لم اتغير، أنا أعاملك كما اعتدت أن تفعل معي.

ــ أنا؟ معقول، لا تكوني سخيفة منذ عودتي لم أعاملك إلا بلطف (رفعت حاجبا وأرخت الآخر) حسنا معظم الوقت.

وصل أدهم ولاحظت فريال ذراعه قبل أن يخفض ذراع السترة ليغطيه

ــ ماذا حدث لذراعك؟

أجابت حجيلة من خلفه

ــ كم الساعة؟ متى تنتهي هذه المناوبة؟

وقفت فريال ونفضت مئزرها

ــ بعد ربع ساعة.

أخرج أيهم هاتفه

ــ هل تمزحين، متى أشرقت الشمس؟

ــ أدهم سأنتظركم بالسيارة (أشار لحجيلة) أنت أيضا.

مرت نصف ساعة على جلوس أدهم وأخيه بالسيارة وفريال وحجيلة لم تغادرا المشفى بعد.

أيهم: علينا أخذ البنتين للفطور قبل إيصالهما للمنزل.

ــ لا احتاجك لتخبرني بهذا، هل من محل قريب؟

ــ أجل على بعد شارعين.

قاطعهما صوت فتح الباب لتركب فريال ثم لحقتها حجيلة شبه نائمة، توقفت السيارة عند أحد المحلات وبمجرد جلوسهم أخرج أدهم سيجارة.

حجيلة: تبرعت للتو بالدم وها أنت الآن تفطر بالسجائر!

أعادها لجيبه: حاضر، هل من أوامر أخرى؟

ــ (ارتبكت) لا... لست آمر.

أيهم: فريال لا تفقديني صوابي، للمرة الألف لم تتعاملين معي هكذا؟

فريال: كيف هكذا؟

ــ هكذا... ببرود كأني شخص غريب تماما، حتى أدهم يلاحظ الأمر.

أدهم: ألاحظ ماذا بالضبط...أيهم أنت تنتظر أن يُعاملك الجميع كما كانوا يفعلون قبل مغادرتك، وحقيقة الأمر أننا نتغير لم نعد كما كنا قبلا.

ــ أنت لم تتغير، بنات عمي لم يتغيرن، لم فريال بالضبط؟

وصل النادل ووضع الأكل أمامهم، لاحظ أدهم أن حجيلة قد غطت في النوم وهي متكئة على ذراعها، قرب فمه من أذنها

ــ نونا استيقظي.

انتبهت ومسحت عينيها... بعد ربع ساعة غادروا المحل وكانت أول محطة يتوقفون فيها مكان عمل أيهم، ثم منزل حجيلة حيث كان والدها في طريقه للمشفى لاصطحابها، نزلت من السيارة وتبعها أدهم عندما رأى والدها بينما ترك فريال نائمة في السيارة، مد يده فور وقوفه أمامه: صباح الخير سيدي.

حجيلة: أبي هذا ابن عم فريال اصطحبنا من المشفى صباحا.

مد والدها يده وصافحه بعدما رأى فريال نائمة في المقعد الخلفي للسيارة: بارك الله فيك ولدي.

أدهم: تشرفت بمعرفتك.

عاد للسيارة بينما دخلت حجيلة ووالدها المنزل، ارتمت في الصالون وأغمضت عينيها في حين وقفت والدتها قريبا من رأسها

ــ من يكون ذلك الشاب الذي أوصلك مع فريال؟

لم ترد، فكل ما كانت تفكر فيه هو صورة عينيه وهي تمرر مصباحها الطبي عليهما.

دخل أيهم المحل وبحث بعينيه في الأرجاء، أحس بالبرد يسري في جسده

ــ تنيبرا هذه انت؟

ــ هل قلت شيئا؟

ظهرت فتاة من مخزن المحل، كانت فتاة قصيرة وممتلئة تضع يدها على بطنها المكور، صرخت بأعلى صوتها

ــ أيهم ابن عمي (هرولت نحوه بخطوات متثاقلة) أيها المشاكس طال غيابك...لقد صرت وسيما!

تلعثم كونه غير متأكد من هويتها

ــ ابنة عمي...

ــ لا تقل أنّك لم تعرفني بعد... أميرة ...أنسيت كم مرة قد عوقبنا بسبب تلطيخ مفروشات جدتي بألوانك المائية.

ــ أميرة كيف أنساك؟! معقول؟! (وبصوت داخلي) كنت كابوسي الثاني بعد فريال.

ــ تعال لنجلس (أشارت لبطنها) فكما ترى لا يمكنني الوقوف كثيرا.

تهرب منها

ــ العمل... أخبريني كيف أستطيع المساعدة.

ضربت كتفه بقوة

ــ العمل لن يهرب، فقط أغريهن بأي ماركة... فتيات اليوم يغلب على طبعهن الحمق. أخبرني هل من عروس في الطريق؟ أدهم يتهرب كلّما سألته.

أصدر ضحكة متصَنَّعة

ــ أخبريني أنت عنك.

ضربت على بطنها

ــ أنا... زوجني عمك قبل عامين، وسأصير أمًّا. ليت ابني يكون بقدر وسامتك... لقد سرقتما كل الجمال من بنات العائلة...أريد لولدي أن يشبهك، عيناك... يا إلهي!!... لو تصير لك لحية خفيفة...

ارتبك أيهم وقرر تغيير الموضوع فوقف

ــ المحل واسع، وفكرة المرايا المستديرة ستكون أمرا مبتكرا.

وهو يستدير وقع نظره على مرآة تكاثف عليها البخار. مشى خطوتين فرآها واقفة هناك، هي المرة الأولى التي يراها بتلك الهيأة، ثوبها بدى حريريًّا والأرجح أن لونه الأصلي كان أصفرًا قبل أن يبهت. أخفض نظره يتابع ثوبها الذي لم يكن يتجاوز ركبتيها، وأخيرا قدماها المخضبتان بالحناء... رفع نظره مجددا يتأمل تفاصيل وجهها المستدير وتلك الشامة على خدها الأيسر، وشعرها الطويل على شكل ضفيرة تتدلى فوق كتفها.

اقترب أكثر منها فأمالت رأسها وبدأت دموعها تنهمر ثم وضعت يدها على بطنها، أحس بالزمن يتوقف وكل ما كان يفكر به هو كيفية وصولها إلى المحل. أحس بيد دافئة تمسك ذراعه أخرجته من تيهه

ــ ابن عمي هل من مشكلة؟

ــ لا أبدًا، أحاول التعوّد على المحل.

ــ عليك ذلك، موعد الولادة بعد شهر إن شاء الله وسأترك لك مسؤوليته كاملة.

ــ تقومين بالسلامة إن شاء الله.

نظر يمينا ثم يسارا بحثا عن المرأة لكنها كانت قد اختفت.

صبيحة اليوم الموالي، استيقظ الأخوان على صوت رش الماء، فتح أيهم باب غرفته وأول ما قابله دلو ماء بلله من رأسه الى أخمص قدميه، ما جعل قميص نومه يلتصق بجسده ويبرز عضلاته، مسح وجهه ونظر لفريال الواقفة أمامه وبيدها دلو، جرت أمه نحوه

ــ ولدي العزيز لم أكن أقصد، لم أعلم أنك ستخرج.

ــ أمي حرام عليك، اليوم الجمعة.

خاطبته فريال وهي تجهز الدلو الذي بيدها لسكبه

ــ ابتعد وأغلق الباب.

ابتعد وهو ينفض يديه

ــ أنتن النساء دائما ما تخترن أسوء الأوقات للتنظيف.

مر بغرفة أخيه كان قد فتح باب غرفته واستند على إطاره وبفمه سيجارة غير مشتعلة راح يعض طرفها، أخذها من فمه

ــ تدخن في هذا الوقت، اِخجل من نفسك يا رجل ستصاب بسرطان الرئة.

ــ لم أكن أدخن، فلا تصب غضبك الصباحي عليّ (ضحك على مظهر أيهم) حمام الهناء أخي العزيز.

أكمل أيهم طريقه وبعد بضع خطوات على السلالم رآها منكمشة وهي تضم ركبتيها بيديها وتصدر نحيبًا، نظر خلفه ليتأكد ألّا أحد وراءه ثم اقترب منها

ــ هل تعلمين مكان تنيبرا؟ هل أرسلتك لتخبريني أمرا؟

بدا أنها تتكلم لكنه لم يسمع شيئا ثم وقفت ونزلت الدَّرَج وهو يراقب خطواتها التي تركت أثرا من الحناء بدأ في الاختفاء بابتعادها، جعله ذلك يتساءل في حيرة

ـ لم أعد أفهم شيئا مما يجري!

وصل الماء من الطابق العلوي إلى السلالم ومن غير أن ينتبه انزلق وهو ينزل فتدحرج من على الدرج ودوى صوت ارتطامه في أرجاء البيت، جرى الجميع نحوه، ساعده أدهم على الوقوف بينما وضعت فريال إحدى ذراعيه على كتفها تساعده للوصول إلى الصالون.

ــ هل انت بخير؟

ــ أجل...أنا ...

بدت فريال جد خائفة

ــ لا تتحدث، استلق للحظة.

كانت أمه تمسك بذراعه

ــ أيهم يا حبيبي لم لا تنتبه، أدهم لنأخذه للاستعجالات.

ــ سأصعد لأحضر سترتي ومفاتيح السيارة.

جرى نحو غرفته بينما بقيت فريال تضع يدًا على كتف أيهم وتمسك بالآخر يده وتضغطها ودموعها متحجرة بعينيها

ــ لم لا تنتبه وتنظر أمامك؟ هل أنت أخرق لهذه الدرجة.

ابتسم رغم ألمه

ــ أنتِ ارمي الماء في كل مكان وانتظري مني أن ...

زاد ألمه فسكت وأغمض عينيه مما جعلها تضغط يده أكثر. فتح عينا واحدة فرأى دموعها تنحدر وتأخذ طريقا على رقبتها فقفزت ذاكرته ليوم حادثة البئر عندما أنقذه والده والتقفته أمه تعانقه، يومها لم تترك يده وهي تصرخ وتبكي ودموعها تنسكب في مشهد يشابه هذه اللحظة كثيرًا.

ــ فريال لا تبكي، مجرد وقعة لا تستحق كل هذا.

دخل أدهم غرفته، حمل هاتفه ومفاتيح سيارته واتجه للخزانة بحثًا عن سترة يلبسها، سحب باب الخزانة وفي تلك اللحظة انتبه لمرآتها حيث كان البخار يملأها

ــ ما قصة الرطوبة اليوم؟!

ارتدى سترته وعند باب الغرفة سمع صوتها فالتفت ببطىء

ــ أيهم سيكون بخير؟ فهل ستكون أنت الآخر كذلك؟

اقترب منها وكله غضب

ــ أيتها البشعة المشوهة هل لك علاقة بما حدث؟

اقتربت لحين صارت عينها تنظر مباشرة في عينيه

ــ هل تصدق أنّي من الممكن أن أؤذيكما، سأحميك دائما، ويوما ما ستصدق أني لست كما تظن.

أشار لها بإصبعه مهدّدًا دون أن ينطق ثم تركها ونزل مسرعًا، كانت فريال تساعد أيهم على نزع قميصه المبلل وأمه تحمل آخر

ــ لا وقت لهذا ساعديني في حمله إلى السيارة.

ضحك أيهم

ــ على مهلك... كلها على بعضها سقطة صغيرة لا غير.

تكلمت فريال وبصوتها بحة

ــ أدهم، لا داعي للاستعجالات، اليوم الجمعة لن تجد هناك طبيبا مختصا، سأتصل بحجيلة وإن تعذر قدومها سننتظر للغد.

ــ أنتظرك بالسيارة سنذهب لإحضارها.

نظرت إليه باستغراب

ــ هل جننت؟

خرج دون أن يسمعها فلم تجد حلًا غير أخذ خمار عمتها ووضعه على رأسها ثم الخروج خلفه. بعد ربع ساعة كان متوقفا أمام بيت حجيلة، نزلت فريال ودقت جرس الباب فتح لها أخوها الأكبر ثم ذهب لتطل حجيلة بملابس نومها التي تحمل دببة ملونة. ضحك أدهم من منظرها وتمتم متهكما: "نونا ماذا تلبسين؟!"

بعد لحظات خرجت والدة حجيلة سلمت عليها ثم دخلت هي وابنتها وأغلقا الباب، عادت فريال للسيارة

ــ هل رفضت المجيء؟

ــ ستغير ثيابها وتأتي، لحسن حظكم لديكم ممرضة بالبيت.

مرت ربع ساعة قبل أن تخرج حجيلة مرتدية تنورة بنية اللون وسترة بيضاء وحملت حقيبة يد تماشي لون تنورتها. ركبت السيارة

ــ صباح الخير.

رد أدهم

ــ صباح الخير ،اسف على الازعاج.

فريال: قلادة جميلة، أعيريها لي.

ابتسمت حجيلة

ــ صدقيني لا تريدين وضعها حول رقبتك.

ــ أمك مجددا؟

ــ لا، جدتي هذه المرة، أتت بالأمس فشكرا على اخراجي من المنزل.

عند وصولهم قامت بفحص أيهم وكتبت له دواء مسكنا للألم

لا يبدو الأمر خطيرا، لكن للتأكد...

أكملت فريال

ــ عليك القيام بفحوصات أخرى.

راحت العمة تضمها بقوة

ــ أرحت قلبي يا ابنتي (تركتها)، فريال هلا أنهيت مسح المياه من الطابق العلوي وسأحضّر أنا الغداء، لم أعد أرغب في تنظيف البيت.

قامت فريال

ــ حاضر عمتي (أشارت لأدهم) هلّا ساعدتني.

مشى أدهم خلفها وبقيت حجيلة بالصالون

أيهم: تنهين تخصصك قريبا؟

ــ لا ليس بعد أمامي مشوار طويل.

ــ مرتبطة؟

احمرت وجنتاها

ــ كيف؟

ــ لا تفهميني خطأ، لدي أخ يزعجني أفكر في الاستراحة منه، وأنت تبدين فتاة من مستواه الفكري والاجتماعي قلت أضرب عصفورين بحجر واحد، نزوِّجه ونحصل على طبيبة في العائلة.

ضحكت حجيلة

ــ أنت فعلا ظريف ودمك خفيف، لا أفهم لم تعاملك فريال بتلك الطريقة.

شده كلامها فتحرك من مكانه لكنه شعر بالألم

ــ واخيرا أجد شخص ينتبه لمعاملتها الفظة معي.

حملت حقيبتها

ــ بالشفاء.

قاطعتها والدته وهي تدخل بصينية القهوة

ــ إلى أين يا ابنتي؟ لن تذهبي من هنا قبل أن تتغديْ معنا.

ــ خالتي شكرا جزيلا لكن عليّ الذهاب.

وضعت الصينية على الطاولة ثم أمسكت يديها وأجلستها

ــ لن تذهبي لأيِّ مكان ستتغدين معنا، وسيوصلك أدهم في المساء (نادت بأعلى صوتها) فرياال، أدهم ألم تنهيا بعد.

أطل أدهم وهو يرتدي سترته

ـ لحظة، أحضر دواء أيهم من الصيدلية وأعود.

ــ تعال إلى هنا ... تعال، أخوك لن يموت من مجرد سقطة كهذه.

بدت الصدمة على وجه أيهم

ــ قبل قليل كنت تبكين والآن صرت لن أموت!

جلس أدهم ووضع قدمًا على أخرى بينما قامت أمه لتنادي فريال، مد يده للصينية وأخذ ملء يده مكعبات سكر وحجيلة تنظر إليه مستغربة من فعله. بدأ برميها في فمه ووجنتاها تزداد حمرة وأيهم يراقب كليهما، رغم الألم بظهره تحرك من مكانه وهمس قريبا من أذنها

ــ أتوقع أنّك تحسبين نسبة السكر في دمه.

ابتسمت وهي تلمس وجنتيها وحينها انتبه أدهم لكليهما، فرمى أخاه بقطعة السكر ورمقه بغضب

ــ الآن كنت شبه ميت...

قاطع كلامه دخول أمه وفريال

تفضلي يا ابنتي، لا تخجلي أنت في بيتك.

ــ شكرًا خالة.

مرت ربع ساعة ووالدتهما لا تبعد عينيها عن حجيلة

فريال: عمتي ماذا أحضّر للغداء؟

ــ أنت ابقي هنا مع ضيفتنا وخذيها لترى البيت وأنا سأهتم بأمر الغداء.

حجيلة: لا بأس خالتي سنساعدك.

دخلن المطبخ وبقي الأخوان بالصالون كان أدهم يقلب وسائد الأريكة وهو يبحث عن شيء ما

ــ هل رأيت هاتفي؟

رد عليه أيهم لكن بكلام لا يجيب عن سؤاله

ــ تلك الطبيبة جميلة حقا، لم أنتبه لذلك قبل الآن، ربما لأنها كانت بأوقات العمل.

توقف أدهم عن البحث ونظر إليه بشيء من الحزم

ــ هل تريد أن أكسر ما بقي من عظامك أم ماذا؟

ضحك أيهم حتى كاد ينقلب من مكانه حتى عاوده الألم

ــ كنت متأكدا أن نظراتك نحوها ليست بريئة.

حاول تجاهله لكن لم يتمكن من عدم التعقيب على كلامه

ــ ماذا تقول؟ هل أثّرت السقطة بدماغك؟

ــ لا، لكن الفتاة أثرت بدماغك، أستطيع معرفة متى يزيد نبضك دون أن أكون بقربك.

ــ لا فائدة من الحديث معك، دع تأليف القصص لكتابك الذي تؤلفه.

ترك الصالون وفي طريقه للطابق العلوي سمع ضحكا فاقترب من المطبخ واسترق السمع.

فريال: سامحك الله يا صديقتي.

ــ أيرضيك يا خالتي أن لديها ولديْ عمٍّ وسيمين ولا تفكر في تزويج صديقتها العانس.

ــ يا ابنتي حفظك الله لا تزالين بعمر الزهور، أنا لست كفريال وسأكون كريمة جدا في ضيافتك، اختاري أحدهما ومبروك عليك.

ضحكت فريال بأعلى صوتها

ــ وسنعطيك الآخر هدية مجانية.

ابتسم ثم أخفى ذلك ودخل المطبخ

ــ هل رأى أحدكم هاتفي؟

عم الصمت فردت والدته

ــ هل بحثت في غرفتك؟

ــ ليس بعد، أمي أيهم كان يقول أنه ليس جائعا وسينام فلا توقظيه (توجه لنافذة المطبخ) الرطوبة اليوم غريبة أم أنني الوحيد الذي يحس بها.

حجيلة: الجو في الخارج معتدل، قد يكون السبب طهو الطعام والنافذة مغلقة.

تمتم: ربما أو أن سقوط أيهم ما هو إلا البداية.

ترك المطبخ وصعد لغرفته، وجد هاتفه على النضد وقبل أن يحمله استدار خلفه، وحينها رأى تنيبرا والولد الأصهب ملتصقا بثيابها كالعادة

ــ جميلة هي نونا أحببتها.

رمى هاتفه اتجاهها والغضب يعميه فضرب الحائط وانكسر

ــ تتخطين حدودك دون أن تدري على ما يبدو.

ابتسمت فصار جزء وجهها أبشع مما هو عليه

ــ أحاول أن أكون لطيفة معك لا غير، ثم ليست نونا من عليك القلق بشأنها.

ــ لِمَ أستمع اليك أيتها البشعة في حين يمكنني جعلك أبشع؟ (أخرج يده من جيبه مملوءة بالملح وقبل أن يرميه عليها كانت قد اختفت). ماذا كانت تقصد بقولها يا ترى؟!

نزل الدرج مسرعا

ــ أمي سأوصل الطبيبة لبيتها وأصلي الجمعة وأعود.

ــ بني بعد الغداء، مابك مستعجل هكذا.

ــ مالذي تنتظرونه إذن، أين الغداء؟

صرخت به والدته مهددة

ــ ولد، من تظن نفسك؟

حمل نفسه وخرج من المطبخ وعند بابه أحس بخيال يمر بجانبه ويعاكسه في الاتجاه، لم يول الأمر أهمية، لكنه سمع صراخا بالمطبخ جعله يعود مسرعا، كانت تنورة حجيلة مبلولة وفريال تنفضها.

ــ ماذا جرى؟ فريال لم الصراخ؟

تنهدت فريال

ــ آسفة ابن العم، لقد انزلق اناء الماء من يدي وانسكب على حجيلة، ولكون الأمر مفاجئا ظننته ساخنا لهذا صرخت.

العمة: وأنا الأخرى ظننته ساخنا، الحمد لله أنه لم يكن كذلك.

بدى أدهم مخطوفا

سامحكم الله، سامحك الله فريال على تلك الصرخة، أفزعتني.

ضحكت حجيلة

ــ يا جماعة، ما بالكم؟ حدث خير... ستجف التنورة في خمس دقائق.

أطل أيهم ويده على خصره

ــ أمي أنا جائع متى يجهز الغداء.

ــ أخوك قال أنك لست جائعًا وتريد النوم وطلب ألا نوقظك.

ساعدته فريال على الجلوس

ــ الآن صرت جائعا.

ــ لا بأس ستأكل أنت وأخوك هنا بالمطبخ ونحن وضيفتنا العزيزة بالصالون.

بعد الغداء خرجت فريال وحجيلة وركبتا سيارة أدهم، الذي لم تفارق عيناه انعكاس صورة حجيلة على المرآة. وصلوا منزلها فسبقها ودق جرس الباب وابتعد قليلا ثم كلمها

ــ نونا اعتني بنفسك وتجنبي المشاجرات خلال مناوباتك الليلية.

احمرت وجنتاها وهو ينظر إليها وقبل ان تنطق بحرف فتح والدها الباب

ــ سيدي هذه أمانتك، واعذرنا مجددا على الازعاج.

أشار والدها لها بعينيه فدخلت مسرعة، ثم مد بصره للسيارة فرأى فريال

ــ بني نادِ ابنة عمك وتفضلا بالدخول.

ــ شكرًا، لكن عليّ العودة بسرعة لألحق بصلاة الجمعة.

ــ لا عليك لن يفوتك وقت الصلاة (أشار بيده لفريال فالتحقت بهما) كيف حالك يا ابنتي.

ــ بخير، وكيف هي صحتك يا عمّي؟

ــ الحمد لله تفضلا.

دخلت فريال وخلفها أدهم، جلسا بالصالون وبعد قليل التحقت والدة حجيلة تحمل صينية القهوة

ــ أهلا بكما.

سعل والد حجيلة ثم تكلم

ــ أعلم أنك تستغرب دعوتي لك للدخول فنحن لا نعرف بعضنا جيدًا، لكن فريال تدري تماما ما أودّ قوله.

فريال: يا عمي كلامك على رأسي وعيني ...

سكتت عندما لم تجد ما تقوله فأكمل

ــ عرفت من ابنتي بأنّك تعتبر كالأخ الأكبر لفريال، وأنا أعتبرها كواحدة من بناتي ولا أرضى لها إلا الخير (أماء أدهم برأسه إشارة إلى اهتمامه بما يقول)، لذا يا بُني أنصحك لوجه الله اسأل عن عائلة الرجل الخاطب لها، اسأل عن قرب.

نظر أدهم لفريال التي لم تكن مستريحة في جلستها ثم خاطبه

ــ لست أفهم عليك، من المفروض أن عمي بحث في الأمر وقال أنهم عائلة محترمة لا بأس بها وأن الرجل انسان طيب.

ــ بني افهمني، لن أخوض في أعراض الناس لذلك ابحث في الأمر أكثر.

دخلت الصالون عجوز نحيفة في حوالي السبعين من عمرها تملأ الأوشام وجهها المجعد وبعينيها كحل كثيف وتتحرك بطريقة بطيئة مرتكزة على عصا من الخيزران تملأها الشقوق، مرت بفريال فنكزتها بالعصا

ــ قومي لغرفة حجيلة، لا تجلسي مع الرجال.

جرت فريال وخرجت من الصالون فاستقبلتها حجيلة عند الباب

ــ جدتك كسرت رجلي.

ــ حاولت تحذيرك وانت لم تنظري إلي...تعالي لغرفتي.

رمقت العجوز والد حجيلة بنظرة غير مفسرة

ــ أعدني لمنزلي لا أحب بيتك.

ــ ومن سيعتني بك هناك وأنت لوحدك؟

لم تجبه واستدارت لأدهم

ــ ما اسم أمك يا بني؟ (أشار له والد حجيلة ألا يتفوه بحرف) أنا أعرفك، أنت ابن عم فريال الذي يعمل بالجيش...انتبه يا ولدي فطريقك صعب وتلك التائهة لن تبتعد عنك قبل أن تأخذ منك كل شيء فاحذرها.

ــ من التائهة؟ (نظر لوالد حجيلة وكان يشير له بأن يجاريها) جدتي اجلسي لم أنت واقفة.

كان هذا ما فعلته، لكن لم تجلس على الأريكة بل على الأرض قبالته

ــ هات يدك (مد يده اليمنى) لا الأخرى، إذن انتما اثنان... لا، لا يا ولدي الكذب سيوقعك في المتاعب، الكذب غير جيد، وحده الصدق ينجيك... تلك المرأة الفارغة تتصيدك فلا تكذب على أخيك، أخبرني كيف تتحملها؟

ــ أتحمل من يا جدتي؟

ابتسمت فتحرك الوشم على وجهها

ــ أولاد اليوم مشاكسون، هل تعلم هي بالأمر؟ لابدّ أنّها تعلم، تلك الفأرة (نفثت على يسارها وعادت تنظر إلى يده) لكنها تلك الخبيثة التي لا تعجبني صورتها على يدك (تركت يده وفسخت عقدة في خمارها الأبيض وأخرجت قطعة جوز يابسة كسرتها الى شقين وضعت واحدا بفمها وبدأت في مضغه وأعطته الآخر) خبئه جيدا وأعده لي المرة القادمة.

ساعدها على الوقوف ووالد حجيلة ساكت وتكلم فقط عندما غادرت الصالون

ــ أعتذر يا ولدي، لا تعط بالا لما تقوله فهي مسنة.

أماء أدهم برأسه

ــ لا عليك.

ــ هيا ولدي فلنذهب للصلاة واترك فريال هنا واصطحبها عند عودتنا.

في غرفة حجيلة كانت فريال مغتاظة

ــ أوصيتك أن تهتمي بالأمر.

ــ فعلت قلت لأبي ألا يتدخل وأن لديك علمًا بالأمر.

ــ كان يجب أن تقنعيه لا أن تقولي فقط، كما أن سمير لا علاقة له بذلك أنت أكثر شخص يُفترض أن يفهم هذا، لم يأخذون نظرة سيئة عنه إذا كان أخوه ...

سكتت عندها دق الباب ودخلت نادية

ــ فريال يا ابنتي أعتذر عما فعل زوجي، تعرفين أنه لا يفضل الحياد في أمور كهذه، اسأليني أنا فقد أمضيت سنوات حياتي معه.

في المساء

فريال: لم تنظر إليّ هكذا؟

أدهم: أنتظر ما ستخبرينني به قبل أن يصل أبي ويصير الأمر غير قابل للتفاوض.

نظرت للأرض

أخو سمير ذو سمعة سيئة هذا كل ما في الأمر، لكن سمير لا يشبهه في شيء والكل يشهد له بالتربية الحسنة.

ــ طيب، يا فريال مادام الأمر هكذا فلدي سؤال أخير، بعد الزواج أين ستقيمين أنت وسمير؟

ــ ببيت عائلته.

عض شفته السفلى وكتم غضبه

ــ يعني مع أخوته وأخص بالذكر أخاه صاحب السمعة السيئة.

ــ سنتدبر أمرنا لبضعة أشهر ثم نغادر.

فتح أدهم باب الصالون ونادى أخاه

ــ أيهم تعال للصالون أحتاجك.

قفزت فريال من مكانها

ــ لم تناديه؟ ما دخله هو بالموضوع؟

وصل أيهم ويده على خصره

ــ نعم، ألا ترون أن ظهري ليس بخير؟ لم تناديني؟

ــ ابنة عمك جنَّت.

ــ ماذا هناك (جلس ومد قدميه) آه يا ظهري، ما الذي يجري بالضبط؟

قامت فريال

ــ لا أنوي مواصلة النقاش في الأمر سأذهب لأساعد عمتي.

بعد دقائق دخل أيهم المطبخ وقد بلغ منه الغضب ما بلغ، أمسك ذراع فريال التي كانت تساعد والدته في تحضير طاولة الطعام

ــ مابك؟ أمجنونة أنت؟ أليس بك عقل؟!

نظرت إليه بصمت بينما صرخت به والدته

ــ قليل الأدب دع ذراعها، قلت لك دعها.

لم ينظر لوالدته وواصل تحدي نظرات فريال

ــ لا، لن اتركها، تظنين الحياة لعبة، أين تريدين الوصول بهذا التفكير؟ (صرخ بها) أخبريني.

جذبته أمه بقوة وصفعته بينما هربت منه فريال، وفي طريقها للغرفة بالأعلى التقت أدهم

ــ هل ارتحت الآن بعد أن أفسدت كل شيء؟

دخلت الغرفة وبدأت تبكي بينما سمعت صوت عمتها وأيهم يرتفع في المطبخ.

صباحا خرج أيهم دون فطور وصفق الباب خلفه، أطلت أمه من نافذة المطبخ ثم عادت لتجلس وتشرب قهوتها مع فريال.

ــ ذلك السخيف غادر دون أن يتناول فطوره.

ــ آسفة عمتي لم أقصد افتعال المشاكل بينكم.

ــ أنت لم تفعلي شيئا، لكن هو لم يكن لديه الحق ليعاملك بذلك الشكل، من يظن نفسه؟ تعلم حرفين في الخارج وأتى يتنمر هنا في منزلي...كله من أدهم ما دخله أصلا في قراراتك؟ تزوجتُ صغيرة وتحملت عائلة والده كلها، هذا هو الزواج تتركين بيتك لتتحملي ظروف زوجك وعائلته.

بقي أدهم تلك الصبيحة مستلقيا يفكر

ــ غدا أكون بالعمل ولن أتمكن من رؤيتها قبل نهاية الأسبوع القادم، هذا لو وضعنا بالحسبان أن يكون الوقت في صالحي(تنهد) ماذا كانت جدتها تقصد بكلامها.

ــ كانت تطلب منك أن تخبر أخاك بحقيقة ما تراه.

جلس مكانه

ــ ألا تملين من مطاردتي أنا وأخي؟ ماذا استفدت طوال كل هذه السنوات الماضية؟

ــ أتيت أخبرك، أمرٌ سيء في طريقه (ابتسمت) حظًا موفقا.

دخل أيهم المحل وكانت أميرة ترتب بعض المستحضرات

ــ صباح الخير يا وسيم.

ــ صباح الخير كيف حال عمّي؟

ــ لم ألتقه نهاية هذا الأسبوع فأنا لم أزر بيت العائلة.

ــ وزوجك؟

استدارت اليه

ــ لا تعلم؟ زوجي يعمل بدبي، ينتهي عقده الشهر القادم مما يعني عودته مع موعد ولادة ابننا. أيهم اذهب للمستودع ستجد هناك صندوقا عليه علامة حمراء، رتب ما فيه بذاك الرف هناك (وأشارت لأحد الرفوف).

ــ أمرك.

لم يطل في المخزن وعند عودته حاملا الصندوق سألها

ــ ماذا عن بقية البنات هل تزوجن؟

ــ أجل، بقيت اثنتان فقط تكملان دراستهما.

سقط الصندوق من يده وشحب لونه وهو يرى تلك المرأة واقفة وقد وضعت يدها على بطن أميرة التي كانت تضحك

ــ مستغربة كيف سمح لهما والدي بالدراسة بينما أوقفني!

نزلت قطرة عرق من جبهته لتمر بخده وتستقر بذقنه، كان يراها تقرّب رأسها من بطن أميرة وتقبله وقد تحولت دموعها للونٍ أزرقٍ نيلي.

أحس بقدميه تخذلانه عندما مرت به وكلتا يديها على بطنها الذي بدأ بالانتفاخ، وعندما تجاوزته جرى نحو أميرة التي بدا مظهرُ الألم على وجهها قبل أن تصرخ بأعلى صوتها. ولحسن الحظ أنه أمسكها قبل سقوطها على الأرض

ــ أميرة هل أنت بخير؟

كانت تئن غير قادرة على النطق وراحت تشير إلى هاتفها، ساعدها على التمدد وجرى نحو هاتفها لكنه لم يدر كيف يفتحه بسبب كلمة السر التي عليه. التفت إليها وكانت كمن يمر بنوبة صرع وقد مالت المرأة عليها تنظر مباشرة في عينيها وجديلتُها تلامس خدَّها فصرخ:

ــ ابتعدي عنها (عاد ألم ظهره ليشل حركته فسقط على ركبتيه، أخرج هاتفه واتصل بأدهم بدا الخط مشغولا، اتصل على الأرضي فرفع أدهم السماعة) أدهم ساعدني...أرجوك.

خرج أدهم مسرعا من الصالون بعد أن ترك سماعة الهاتف متدلية، دخلت فريال بعده ورفعت السماعة لأذنها وعند سماعها أنين أيهم صرخت بأعلى صوتها

ــ عمتي... أيهم.

تمالك أيهم نفسه وحبا باتجاه أميرة فابتعدت المرأة عنها، سحبها باتجاهه

ــ لا تموتي، لا تموتي بسببي أرجوك.

أُدخلت أميرة للاستعجالات وساعد أدهم أخاه على الجلوس في مقاعد الانتظار وهو في حالة هستيرية

ــ أيهم تمالك نفسك، أخبرني ماذا جرى؟

ــ لن تصدقني... لا أحد سيصدقني.

ــ لا عليك اهدأ... ستكون الأمور بخير.

لم يتوقف هاتف أيهم عن الرنين، فأخذه أدهم منه.

ــ إنها أمي... أجل أمي، أيهم بخير... لا أمي أنا أقسم لك... أميرة في الاستعجالات... لا أمي أرسلي فريال فقط.

جلس بجانب أخيه

أنا أفهمك، لم تتمكن من مساعدتها بسبب ظهرك... لا تقلق.

ــ أنت لست تفهم...

سكت وهو يرى المرأة تتكئ على باب غرفة الاستعجالات وهو الأمر الذي رآه أدهم أيضا، نظرت لكليهما نظرة حزن ثم تمتمت وبعدها صرخت دون أن يكون هناك أي صوت ونظرت للأرض حيث كانت هناك قطرات دم راحت تشكل بقعة بين قدميها.

سقط أيهم على ركبتيه بينما فقد أدهم القدرة على النطق وهو يرى ثوبها الملطخ بالدماء والأثر الذي تركته قدماها كلما خطت خطوة نحو باب الخروج.

وأخيرا خرج الطبيب وهو ينزع قفازيه الملوثين بالدماء وخلفه ممرضتان تجرّان السرير الذي عليه أميرة، وقف أدهم وسار نحوه.

ــ إلى أين يأخذانها؟

ــ للعمليات...الأمر معقد...هل تناولت دواءً ما؟ هل لديها مرضٌ تعالجه؟

ــ لا أدري... امنحني لحظة. (عاد لأيهم) أعطني هاتفك، سأكلم عمي.

دخلت فريال مسرعة وحينها وقف أيهم واتجه نحوها كان يبكي كولد صغير أمسكته من ذراعيه

ــ هل أنت بخير؟

ــ فريال، أميرة لا أدري ما حدث معها...(تلعثم)

تركته واقفا وذهبت للطبيب

ــ دكتور المريضة عانت في بداية حملها من انفصال جزئي للمشيمة وقد عالجت لدى الدكتورة "نوال" بقسم النساء هنا.

ــ فريال ظننتك لا تعملين اليوم.

ــ المريضة ابنة عمي...

ــ اصعدي لقسم النساء واطلبي الطبيبة سيحضرون المريضة لغرفة العمليات.

مرّت بابنيْ عمها

أدهم سأرسل صديقة لي لكي تأخذ أيهم لغرفة الفحص، وأنت اتصل بعمي ليحضر ملف أميرة الطّبي، لن أتأخر.

مساء ذلك اليوم قاد أدهم سيارته متجها من المشفى إلى بيت عمه ليوصل فريال وقد جلست بالمقعد الخلفي بينما جلس أيهم بالمقعد الأمامي ويده تشد رأسه.

أجابت فريال على هاتفها الذي كان يرن

ــ المسكينة كان الله في عونها...يا عمتي لا تبكي هي لا زالت صغيرة وستحمل مجددا بإذن الله (خبأت الهاتف بحقيبتها)، لحسن حظها أنّك كنت هناك يا أيهم.

لم يرد عليها فقد اكتفى بالنظر خارج السيارة

أدهم: لا تلم نفسك، لم يكن بيدك شيء لتفعله.

سالت على خده دمعة مسحها وتكلم ببحة في صوته

ــ هل ستكون على ما يرام؟

فريال: ستتحسن. يا لسخرية القدر، قبل ستة أشهر أتت إلى المشفى وهي في قمة الخوف من أن تكون قد فقدت حملها، فطمأنتها الطبيبة أنه لا خطر على حملها وها هي تجهض اليوم بعد أن بقي لموعد ولادتها شهر واحد، لو نظرنا للأمر طبيا كان ذلك متوقعا خصوصا مع الجهد الذي تبذله في المحل... شفاها الله.

أوقف أدهم السيارة عند باب بيت عمه

فريال طمنينا عنها حينما تزورينها.

ــ ألن تدخلا معي البيت؟ لابد أن أمي حضّرت الطعام.

أيهم: لا فريال، في مرة قادمة إن شاء الله.

ترجلت فريال من السيارة وأكمل الاثنان طريقهما دون أن يكلم أحدهما الآخر وعند دخولهما البيت كانت أمهما قد تجهزت للخروج.

أدهم: إلى أين أمي؟

ــ لبيت عمكما وبعدها المشفى (أمسك مقبض الباب ليفتحه) لا داعي، سأذهب وحدي...أمر آخر والدك سيعود اليوم من سفره، وأنا لم أتمكن من محادثته لا تنس اخباره ليلتحق بي في بيت عمك.

بمجرد خروجِها وانغلاق البابِ خلفَها نظرا لبعضهما ثم سار أدهم متجها لغرفته، حينها أمسكه أيهم من ذراعه: ألن تقول شيئا؟

ــ أيهم الأمر لا يستحق كل هذه الدراما منك.

ــ تقول دراما؟ ألم تر ذلك الشيء؟

أبعد ذراع أخيه عنه

ــ أرى ماذا بالضبط؟!

صرخ به

ــ لا تجنني أعلم تماما أنك رأيتها بثوبها الدامي هناك في الاستعجالات (استدار أدهم ليكمل طريقه لكنه أوقفه بالقوة)، لا تعطني ظهرك وأنا أكلمك، لا تكذبني في ما حصل اليوم.

دفعه أدهم بعيدا

ــ لنقل أنني أصدقك، لنقل أنّي رأيتها عند باب الاستعجالات بثوبها الأصفر الدامي وصراخها الذي لا صوت له هل سيعيد ذلك لأميرة ابنها؟ هل سيغير مما حدث وتعود لصحتها؟

لكمه أيهم بكل ما أوتي من قوة

ــ كنت أعرف أنّك كاذبٌ من البداية.

أمسك أدهم بخناقه

ــ أنا أقول لو ...افهم.

ضغط أيهم على يدي أخيه دون أن يبعدهما عن ياقة قميصه وصرخ بأعلى صوته

ــ أنا لم أقل شيئا عن صراخها الصامت.

ابتعد أدهم قليلا وهو لا يجد كلمات يرد بها

ــ أنت لست بخير وأنا ليست لدي القوّةُ لمشاحناتك.

حاول أيهم لكمه مجددا لكن أدهم أوقف يده وسبقه بلكمة أسفل ذقنه واحتدم الشجار بينهما، وعندها فتح أبوهما باب المنزل ودخل ليُفاجَأَ بالموقف، فتدخل وأبعدهما عن بعض.

ــ ما الذي يجري في المنزل؟!

تفل أدهم على يسراه ومسح الدّم من على شفته بإبهامه وسار نحو السلالم وصعد نحو غرفته بينما انهار أيهم على ركبتيه

ــ أيها الكاذب...كيف تتصرف بخبث هكذا معي؟ ... لقد مر بي وقت ظننت فيه أنني قد جننت.

لم يعره اهتماما وواصل طريقه لغرفته بينما وقف والدهما حائرا غير قادر على استيعاب الأمر.

في الغرفة راح أدهم يجمع بعض ملابسه في حقيبة زرقاء، نظر لهاتفه المكسور على النضد

ــ هل ارتحت؟ هل هذا ما أردت الوصول اليه.

بدأت تنتحب

أنا لم أقصد هذا أبدًا كل ما أريدهُ سلامتكُما، لِمَ تفهمُني بشكلٍ خاطئ؟

ــ تلك التفاهة التي تُردّدينها لا تنطلي إلا على أيهم، جِدِي أسلوبًا جديدًا فهذا الكلام لن ينفع معي.

اقتربت منه ووضعت يدها على صدرها

ــ لا تملك أدنى فكرة عما يُخبئه هذا القلبُ هنا.

قرن حاجبيه متحديا إيّاها

ــ لن يخبِّئَ سوى بشاعةٍ تشبه وجهك.

بعد أن أخبر أيهمُ والده عمّا حدث لأميرة توجه لغرفته، وكانت هي تنتظره على سريره بنصفِ وجهِهَا الجميل

ــ هل قريبتُك بخير؟

ــ كيف تجرّأتم على فعل أمرٍ شنيع كهذا؟

ــ نحن؟ ... فعلنا؟ ... الأمر ليس كما تتصوره أبدًا، لقد فهمت ما حدث بشكلٍ خاطئ.

ــ ليْتَ باستطاعتي وضعُ يدي حول رقبتك وخنقِك.

ــ ألستَ من يقول أنّ للقصة وجهين؟ وأنت اليوم قد رأيت جانبا منها فقط.

ظهرت المرأةُ والصبي الأصهبُ يقودُها، بَدَتْ شاحبةَ الوجه ولا يزال على ثوبها آثار الدماء، كانت دموعُها نيليّةُ اللونِ قد جفّت مخلِّفة أثرًا على خدَّيْها، بينما تدلّت جديلَتُها على كتِفِها وقد بدأ لونها يصيرُ فضيًّا.

ــ لن أسامحكِ على ما فعلتِهِ بابنة عمّي...

قفز الولد الأصهب على الطاولة ونظَرَ إليه بعينيه اللَّتَيْنِ غطّى السوادُ فيهما البياض

ــ اسمعها.

جرت قشعريرةٌ بجسده وأخافه الأمر. سحب الكرسي وجلس ينظرُ إليها فأشارت بيدها إلى مسودةِ كتابه، سحبها بصمت ونقر بقلمه على الطاولة.

تنيبرا: ربّما عنوانُ "ثكلى" سيكونُ مناسبًا.

الأصهب: تينيبرا ستروي القصّة عنها فهي لا تستطيع الكلام.

ثكلى

لا أدري كم من الوقت مرّ قبل أن تنزح قبيلةٌ من الجنوب وتستوطن حول البئر، سمعتهم في الأيام الأولى يتكلمون عن كون البئر ملعونة وظننتهم قد عرفوا بوجودي. كانت النسوةُ تأتي جماعات لسقي الماء خوفًا، مع أني لم أفعل أبدا ما يشكل أيَّ خطرٍ عليهم، وقد كانت أمُّ برام تأتي للسقي كل ظهيرة بعد أن ينتهي الجميع، وفي كل مرةٍ أسمعُ خطواتِها كنت أبتهج ولا أعرف السبب، ربما لأنها كانت تسقي الماء في هدوء دون أن تلعنني بسبب وجود الضفادع في دلوها، وبعد مدة عرفت من خلال كلام النسوة أنها بكماء ولم يفلح أي حكيم في علاجها، أمُّ برام كانت حزينةً طوال الوقت لأنّها ظنّت أنها لن تفرح كقريناتها أبدا، حسدتُ تلك القبيلةَ لأنّها لم تحارب الحبَّ كما كانت تفعل قبيلتي، وكان كل رجل يختار زوجته دون أن يقف أي عرفٍ في وجهه، لكنِّي بنفس الوقت حزنتُ لأجلها فهي الأخرى لم يكن نصيبها أحسن من نصيبي، فقد صارت الزوجة الثالثة لأحد وجهاء قبيلتهم.

ذكرتني صفاته بالغريبِ الذي أحببت يومًا، فقد منحها كل ما تمنته، لكن عند البئر تسمع أسرارا أخرى، العقربتان اللتان عاشت معهما لم يكونا بقدر لطفه معها، وصمتُها الدّائم جعلها ضعيفةً أمام حيلتهما، مرات عديدة زارتا البئر لرمي حليها وهدايا زوجها، وفي شهر أغسطس (أوت) وفي ذلك الحر الشديد جلست عند حافة البئر ولم أدرِ لفرحها سببا لحين رأيتها تحاول الوصول لنبتة العليق التي نمت حول الجذع الذي يتدلى منه الحبل وهناك عرفت أنها ستصبح أمًّا ولكم فرحت لأجلها ذلك اليوم.

صرت أستقصي أخبارها بحماسة كلما تجمعت النسوة حول البئر، ومرت الأشهر وهي تزداد جمالا وصار الجو شتاء فصار ماء البئر شبه مجمد، لا زلت لا أدري ما كان الاحتفال ذلك اليوم فقد أتت كل النساء وتجمعن قريبا من البئر ورقصن على أنغام الطبل، ونفخن في القرون رغم برودة الجو ووضعن الحنة على أيديهن وأرجلهن.

طلبت العقربتان من أم برام أن تُحْضر لهن ماءً من البئر، وعندما عارضت نسوة القبيلة الأمر كونها حاملا تحججتا بأن إحداهن سترافقها. كان باستطاعتي رؤيتها خلفها تنتظر الفرصة لإسقاطها بالبئر، ولم أكن لأسمح بذلك...اقترَبتُ من السطح والأغلب أنّ العقربة رأتني لأنها بدأت بالصراخ والاشارة نحوي فاجتمعت كل النسوة حولها بينما استغلت العقربة الأخرى الفرصة لتضرب بطن أم برام بكل قوتها فامتلأ الثلج بالقرب من البئر دما.

بعد سبعة أيام وفي وقت الظهيرة سمعت صوتا أشبه بهمهمة لم أستطع تمييزه ثم دوى ارتطام جسد أم برام بالبئر وملأت رائحة دمها المكان، حاولت ايقاظها وعندما فتحت عينيها تحت الماء حاولت الهرب بعيدا عني لكن ...لم يكن الأمر ينفع...صارت رفيقتي بالمكان ولم أستطع أن أفهم منها مالذي جرى بالضبط، ثم بدأت الأيام تمر وصرنا نسمع من النسوة قصة أمِّ برام التي فقدت طفلها ولم تعد تستطيع الانجاب فرمت بنفسها في البئر، وكم حاولت ضرَّتاها الاعتناء بها ومساعدتها على تخطي الأمر.

بقيت معي بالبئر سنوات وهي ترى أولاد العقربتين يكبرون بينما حرمت هي من وليدها ومن العدالة لرميها بالبئر.

ترك أيهم القلم ومسح وجهه بيديه

ــ تقصدين أنها لم ترمِ بنفسها بالبئر.

ــ ما لن تخطه في كتابك هو أن احدى العقربتين ندمت أخيرًا على ما فعلت، وأخبرت أولادها بعد سنين عديدة أنّها وضرتها الأخرى قامتا بإفقادها الوعي ومن ثم جرّها نحو البئر ورميها هناك.

وقف من مكانه

ــ ذلك لا يعطيها الحق لفعل ذلك بأميرة.

لمست تنيبرا أنفها بأصبعها ونقرت عليه قبل أن تضيف

ــ لا علاقة لأم برام بما حدث لقريبتك، لقد عرفتْ مسبقا أنها ستفقد ولدها وحاولت اخبارك لكنك لم تفهم عليها. ألم فقدان الولد الذي تحس به يجعلها تتمنى ألا تحسه أمٌّ أخرى.

تنهد وعاد ليجلس

ــ كانت ستسمي ابنها "برام" اذن؟

وقفت تنيبرا خلفه وقربت فمها من أذنه: لو أغمضت عينيك وأحسست بألمها ستسمع صوتها.

أغمض عينيه وراح يتذكر حادثة أميرة وعدم قدرته على مساعدتها، وهناك بدأ يسمع صوتا رهيفا رقيقا يقترب من بعيد، كان صوتا حنونا ذكره بأيام طفولته، مجرّد لحنٍ جبلي به رنة تتغير نوتتها كل مرة، صار

اللحن بعد لحظة حزينا يشبه عزف الكمان ثم تحول فجأة لصرخة عالية جعلته ينتفض ليجد نفسه قد وقع عن سريره.

جرى نحو مسودته وفتحها: ظننتني كنت أحلم... لقد كتبت قصتها، كيف غفوت وكم الساعة؟

ــ تنيبرا: إنه الصباح، كانت تلك التهويدة التي تهمهمها لبرام كل ليلة قبل أن تفقده.

فتحت والدته الباب

ــ انزل الفطور جاهز وعملك ينتظر.

ــ صباح الخير أمي.

هددته بسبابتها

ــ لا تصبحني، أخبرني والدك عن شجاركما، انظر لوجهك، هل تدري أنه كان في مقدور أخيك أن يحطم فكك وأنفك، بل كان باستطاعته كسر ظهرك أيضا خصوصا مع حالتك الصحية هذه.

ــ (تململ) أمي...

ــ صه ابق كلامك لنفسك، لن أسامحكما هذه المرة، لن أفعل.

نزل خلفها يفكر

ــ ما الذي يمكنني فعله مع أدهم، كنت أعلم أنه يكذب من البداية لكن مواصلته لفعل ذلك دون أن يدرك تأثير ذلك علي يجعلني أفقد أعصابي.

أطل أدهم من غرفته وحين سمع خطوات أخيه وهو يدخل المطبخ تسلل لغرفته، حمل المسودة وراح يقلب صفحاتها.

مضت حوالي ربع ساعة، دخل أيهم غرفته ولم يفاجئ كثيرا برؤية أخيه، رمى أدهم المسودة بالحائط

ــ أخبرني أنك لا تصدق هذه الخرافات.

ــ أنت آخر شخص يحق له نصحي.

ــ لا تدفعني لرفع صوتي فوالدي لازال بالبيت، كل هذا الذي كتبته مجرد كذب، يحاولون خداعك يا أهبل.

جلس على سريره

ــ هل هذا اعتراف بأنك تستطيع رؤيتهم ومحادثتهم؟

خرج من غرفة أخيه ثم عاد ليدخل ويده على مقبض الباب

ــ لا أصدق أني أقولها، فريال كانت محقة باختيار سمير، ليست بحاجة لولد عالق في ماضيه مرهف المشاعر يبكي لقصص الأشباح.

أغلق الباب بقوة بعد خروجه، تمدد أيهم في سريره

ــ بالطبع عندما لا تستطيع اثبات وجهة نظرك أقحم فريال في المنتصف.

عاد مساء ذلك اليوم من عمله وكانت والدته رفقة والده بالصالون

ــ مساء الخير.

ــ لا تُمَسِّني، عشاؤك على الطاولة.

ــ سأنتظر عودة أدهم.

والده: أدهم بعمله ولن يعود هذا الأسبوع على حد قوله.

ــ غير معقول، كل هذا لأجل مشاحنة صغيرة.

ــ حالة وجهك لا تقول نفس الشيء.

ــ سأتصل به وسأعتذر أمامكما لتوقفا هذا التَّجهم بوجهي مع انه المخطئ في حقي.

والدته: (وهي تقوم) لا تتعب نفسك، لا يملك هاتفا فقد انكسر قبل أيام.

ــ لا بأس أنا لن أتعشى فلا تتعبي نفسك بالوقوف.

مر الأسبوع الأول وأيهم يذهب للمحل صباحا ويتفرغ لمسودة كتابه ليلا دون أن يسمع أي خبر عن أخيه ثم مر الأسبوع الثاني وقد بدأ الأمر يضايقه.

وقف أمام المرآة ينظر للحيته الخفيفة التي أعطته مظهرا وسيما

ــ معقول! يشغلك العمل أم أنك تتهرب مني؟ (رن هاتفه فأسرع إليه وكم تمنى لو يكون المتصل أخاه أدهم) أهلا عمي، حسنا سأخبر أبي...لا تقلق سأحضر.

نزل للمطبخ وسأل أمه

ــ هل اتصل أدهم؟ هل سيعود قريبا؟

ــ كل يوم تسألني وكل يوم أخبرك وأقول اتصل بوالدك لكنه لن يعود فهو مشغول.

ــ مشغول أم لا يريد العودة متهربا مني.

ــ أيهم يا بني، حتى قبل عودتك لم يكن أدهم يبقى كثيرا بالبيت وهو يفضل البقاء بالثكنة، الصراحة استغربت بقاءه بالبيت بعد عودتك وظننت الأمر دائما لكن ...

ــ لكن انا تسببت في خروجه من المنزل مجددا هذا ما ستقولينه؟

ــ كنت سأقول دوام الحال من المحال.

ــ اتصل عمي وقد دعانا للعشاء لأن أميرة قامت بالسلامة.

ــ اخراج معروف يعني.

ــ أنا لا أفهم هذه المصطلحات، يبدو أنه دعا كامل العائلة.

أخرج هاتفه واتصل بفريال

ــ صباح الخير فريال.

ــ صباح النور.

سمع صوت رجل بقربها

ــ أين أنت؟

ــ بالسوق ...أتى سمير لبيتنا وخرجت معه لأشتري بعض المستلزمات.

ــ تركككما عمي تخرجان لوحدكما.

ــ والدي لا يعلم فلا تلعب دور الواشي وتخبره، خرجت معي سوسنة الصغيرة.

ــ هناك عشاء الليلة ببيت عمي، هل ستأتين؟

ــ سمعت بالأمر وأبي لم يقرر بعد من سيذهب لكن الأغلب سآتي مادامت جدّتي ستحضر.

ــ فريال كنت سأسأل، هل تحدثت مؤخرا مع أدهم؟

ــ أجل، التقيته أول أمس بالصدفة، كان يزور والدة زميل له.

ــ بأي سوق أنت؟

ــ لم تسأل؟

ــ سأذهب للعمل الآن، لو أردتِ مُرّي بالمحل قد تعجبك المنتجات التي أحضرناها مؤخرا.

ــ فكرة ممتازة سنمر، فقط لا تحاول خداعي كما تفعل مع زبائنك.

ابتسم وهو يغلق الخط

ــ أنت أكثر شيء سأندم عليه في حياتي.

دخلت فريال المحل وهي تمسك يد أختها الصغيرة وخلفها سمير، وقفت خلف أيهم الذي كان يكلم زبونة يخبرها عن الألوان الدارجة في هذا الفصل، راودها شعور بالغيرة من طريقة ضحكها معه

ــ صباح الخير أيهم.

استدار إليها

ــ أهلا ابنة العم (مد يده لمصافحة سمير) كيف حالكم؟

تعلقت عيناها بلحيته الخفيفة وشردت لحظات قبل أن ترد

الحمد لله السؤال عنك، كيف حال عمتي؟

ــ توصل لك سلامها (أشار بيديه) المحل تحت تصرفك.

تجولت في المحل بينما أوقف أيهم سمير

ــ لدي حديث معك.

كانت نبرته مختلفة الأمر الذي جعل سمير يرد بنوع من الخوف

ــ حسنا.

ــ من الأخير، بيت منفرد لفريال أو سأحرص على ألا يتم هذا الزواج.

ــ من أنت لتقرر أمرا كهذا؟

ــ لن أعيد كلامي مرتين، لا تدع مظهري المحترم يخدعك.

ــ هل تعلم فريال بموقفك؟

وصلت فريال وبيدها مجموعة من المنتجات

ــ أعلم ماذا؟

سمير: ابن عمك هذا يحاول تهديدي.

ــ أيهم، ماذا يجري؟

ــ مثلما يقول خطيبك كنت أهدده، إن لم يجد لك بيتا منفردا عن عائلته فأنت وهذا العصفور الذي ينفض ريشه أمامي لن تتزوجا أبدا، (أرادت الكلام فقاطعها برفع سبابته) وقبل أن تثيري فضيحة بالصراخ وقول كلام من قبيل لا تتدخل ولا يمكنك فعل شيء أنصحك بالتفكير أكثر.

وضعت المنتجات على الرف وتمتمت: "أحمق"، ثم خرجت وتبعتها أختها الصغرى وسمير.

ــ أنا لن أسمح له بمخاطبتي هكذا مجددا، ابن عمك يا فريال مغرور ويظن نفسه شخصًا ذا قيمة فقط لأنه درس خارج البلاد.

رمقته بغضب

ــ لم سكت عن كلامه داخل المحل إذن؟ كن رجلا يا سمير، تمنيت لو تقف ولو مرة في وجه أحد من أجلي.

ــ ألست أفعل؟ ألم أدافع عن علاقتنا قبل قليل.

ــ فعلا؟ وأين كنت عندما هددني بسبابته؟

ــ هل تريدين أن أعود وأقلب عليه المحل؟

ــ (تنهدت) سأعود للمنزل، افعل ما تشاء.

أمسكت يد أختها التي لم تفهم شيئا وجرتها خلفها بينما سار سمير في عكس اتجاهها.

نزع أدهم بدلته العسكرية ووقف أمام مرآة الحمام وقد لف نصف جسده الأسفل بفوطة، خرج أحد زملائه من الدش

ــ أدهم ألم تعد للمنزل بعد؟!

ــ لم أعد ولن أفعل قبل أن يمر بعض وقت.

ــ ماذا يجري؟ هل تشاجرت مع والدك مجددا بشأن الزواج؟

ــ بل مع أخي أيهم.

ــ عاد ذلك المدلل من رومانيا؟ كان يفترض أن تخبرني...كلانا يعرف أيهم، سيعتذر منك بمجرد رؤيتك.

ــ أعلم ولا أريده أن يفعل لأني المخطئ.

ــ دعني أفهم هذا جيدا، لا تريد أن تلتقيه حتى لا يعتذر منك.

ــ تماما.

ــ إذن اعتذر منه أنت وينتهي المشكل.

ــ لا أريد أن أعتذر منه لأني أعلم أنه سيسامحني وأنا لا أريده أن يفعل.

ــ لا أظنني فهمت، لكن لا عليك سيتحسن الوضع حتما، حمام الهناء.

بعد لحظات تحت الماء الساخن

ــ ما كان يجب أن أكذب من البداية، لكن لو أخبرته كل شيء لكرهني.

عاد بذاكرته ليوم حادثة البئر عندما غاص أيهم في الوحل أكثر وسحبه معه وصورة وجهها تقترب منه أكثر لتفصل يديهما وتدور حوله وتهمس في أذنه بصوت يشبه فحيح الأفعى

ــ لم أعد أريد ذلك الجبان الخائف، ابق أنت معي وكن ولدي الذي لا يقهر.

حدث ذلك قبل أن يذوب الملح بجيبه كليا في الماء فيبعد شبحها، آخر ذكرى له من تلك الحادثة يدا عمه والد فريال تسحبه ثم يداها المزعجتين تلتصقان بكلتا قدميه وتخرج معه الى البر.

ضرب أدهم يده بالجدار المبلل

ــ عليك ألا تسامحني لما فعلته أبدا.

اجتمعت العائلة في بيت والد أميرة للعشاء والذي كان فضوليا لمعرفة سبب تخلف أدهم.

ــ كيف لا يأتي؟ أردت أن أشكركما معا، لو لم تكونا هناك لفقدنا أميرة.

ــ صدقني عمي منذ ذهابه لم نتواصل كثيرا، ولا أظنه يعرف بوجود العزومة أصلا.

والد فريال: أيهم بني الآن وقد استقريت في عملك ألا ترى أنه حان الوقت لتؤسس عائلة.

والد أميرة: لا تستمع إليه، عمك وعلى الأرجح ينوي تزويجك لإحدى بناته.

ضحكوا بينما تكلف أيهم الابتسامة، وفي غرفة أميرة جلست فريال رفقة الكثير من بنات عمها رفقة أم أيهم يطمئنون على صحتها.

فريال: لا عليك أميرة لازلت بعمر الزهور وستنجبين الكثير من الأولاد والبنات.

أميرة: ظننتني سأموت فعلا...يقولون أنّ الشخص إذا قارب الموت يتمكن من رؤية أمور غريبة.

أم أيهم: محقة في هذا، أثناء ولادتي لأيهم شارفت على الموت وخيل إليّ أنني أرى أشخاصا بملابس بيضاء ظننتهم ملائكة.

ضحكت فريال: عمتي لابد وأنهم الأطباء والممرضون بغرفتك.

تنهدت أميرة: أعتقد أني رأيت الشيطان.

ــ لا إله الا الله محمد رسول الله، ماذا تقولين يا أميرة؟

ــ لا شيء، فريال ألن تغيري لي الضمادة التي على الجرح.

ترك الجميع الغرفة بينما أخرجت فريال مستلزمات تطهير الجرح: أعلم أنك تريدين الحديث إليّ، ألم أنصحك بالتوقف عن العمل لحين تلدين.

ــ دعينا من الأمر، فريال أظنني رأيت الشيطان فعلا.

جلست فريال بجانبها

ــ لم تقولين هذا؟ والأهم لم تخبريننني أنا بهذا وتصرفين البقية.

ــ فريال أنا فعلا لا أطيقك وأنت تعلمين هذا جيدا، منذ صغرنا أكره المعاملة التي تحضين بها من الجميع، المهم في الأمر أنا أخبرك لأنك أكثر شخص يهتم بأمر أيهم.

ــ ماذا تعنين؟

ــ أعتقد أن أيهم رأى الشيطان أيضا.

وقع المقص من يد فريال فانحنت لالتقاطه

ــ بم تتفوهين يا مخبولة؟!

ــ عندما ذهب أيهم ليحضر هاتفي رأيت تلك المرأة وهي تحاول خنقي، كانت ضفيرتها طويلة وبعينيها سائل أزرق، حاولت ألا أنظر إليها فأدرت وجهي وكانت هناك شيطان وجهها (سكتت واقشعر بدنها) كانت تبتسم لي وكانت مخيفة جدا.

ــ آه منك يا أميرة، أحيانا تجنحين بخيالك، وما دخل أيهم بتخيلاتك.

ــ لأنه رآها أيضا وصرخ بها لتبتعد، لولاه لخنقتني ولكنت مت.

ــ أيهم لم يخبرني شيئا عندما وصلت المشفى، أمر كهذا ما كان ليخفيه...

قاطعتها

ــ تذكرين ونحن صغار عندما مر بتلك الفترة، عندما كان يخاف من البقاء وحده بعد أن كاد يغرق، رأيت نفس ملامح وجهه الخائفة، كنت أخاف من بكائه كثيرا، مرة كان يصرخ: "الشيطان سيأخذني".

ضحكت فريال: والمعنى من حديثك؟

ــ ماذا لو أن من يمرون بتجارب مشابهة يستطيعون رؤية ما لا يراه الأشخاص العاديين وأنا وأيهم كدنا نموت...

قاطعها صوت الباب يدق ووالدتها تناديها للعشاء، غادرت فريال الغرفة وعند جلوسها للطاولة وحملها الملعقة راحت تفكر بما قالته أميرة وفجأة مر بذهنها كلام أيهم ذلك اليوم "اختلقت قصة أشباح وعلى أدهم أن يقوم بإقناع القارئ ببطلانها" توقف الطعام بحلقها وسعلت، لم تتوقف لحظة عن التفكير حتى أثناء شرب الشاي طوال السهرة.

في صباح اليوم الموالي استيقظ أيهم على صوت ضجيج في الغرفة المجاورة

ــ لابد ان أدهم قد عاد.

جرى نحو الغرفة وكان بابها مفتوحا وأدهم يقوم باختيار ثياب لوضعها بحقيبته، دخل الغرفة ووقف أمام أخيه

ــ صباح الخير.

لم يرفع أدهم عينيه عن حقيبته

ــ صباح النور.

ــ هل ستظل معاملتنا لبعض على هذا المنوال.

ــ أي منوال؟

ــ إن اعتذرت لك فهل سيتوقف هذا التجاهل.

رمى سترته في الحقيبة بقوة

ــ لا أريدك أن تعتذر إلي.

ــ أعلم كما لا يمكنك الاعتذار لي عن كذبك رغم أنك تعلم أنى سأسامحك مهما فعلت.

أغلق أدهم حقيبته ومر بجانب أخيه ونزل للمطبخ، تبعه أيهم وجلس قبالته على طاولة الفطور.

ــ أمي توقفي عن وضع كل هذه المعجنات أمامي، أريد فنجان قهوة فقط.

ــ يا بني أنت لست تأكل جيدا.

ــ لدي مهمة مكتبية في الولاية المجاورة سأذهب غدا وسأغيب حوالي الأسبوع.

نظرت الأم لهما على حد سواء

ــ متى تكبران وتوقفا لعب الأولاد هذا؟

تكلما معا: "أمي..."

قاطعتهما

ــ لا أريد سماع مبرراتكما، وأنت متى تتخلص من تلك اللحية؟!

ــ اللحية تناسبني وأبدو أوسم بها.

أخفى أدهم ابتسامته وقام يقبل رأس والدته

ــ سأتصل كالعادة.

أمسك أيهم ذراعه

ــ ستذهب هكذا.

جذبه نحوه وتعانقا، كان الشعور الذي راودهما غريبا لم يرد أدهم أن يبتعد بينما تجمعت الدموع بعيني أيهم.

ــ اعتنِ بنفسك.

أماء أدهم برأسه وغادر البيت، وعاد أيهم للجلوس لإكمال وجبة فطوره، نظرت والدته لقطع السكر

ــ ليس من عادته عدم أخذ السكر عند مغادرته.

صعد لغرفته وتمدد على السرير

ــ تنيبرا مزاجي لا يسمح، ويراودني احساس سيء فأجلي الحديث لوقت آخر.

شدت على يد الولد الأصهب فتحدث: الأخوة هكذا، لا يدرون مدى المعاناة التي يسببونها إلا بعد فوات الأوان.

تنيبرا: ألم يحن الوقت لتسمع حكاية مؤلمة أخرى؟

ترك سريره واتجه لمسودة الكتاب

ــ ما المانع؟ لدي بعض الوقت قبل الذهاب للعمل.

تعلق رضيع بقدمها وراح يتشبث بثيابها صعودا لحين استقر على كتفها.

تنيبرا: تود أن تعرف قصة "كاليڤو" أولا (ربتت على رأس الولد الأصهب) أم "نوكس"؟ (مدت سبابتها للرضيع فقضمه وبدأ في مصه)

ــ أيا كان ما تفضلينه.

ابتسم كاليڤو

ــ سمِّ حكايتي بـ "فراشة ملونة تاهت عن السرب".

ابتسم أيهم باستهزاء

ــ أتوقع أنك الفراشة الملونة.

فراشة ملونة تاهت عن السرب

كنت الابن الأكبر والوحيد لشيخ القبيلة، وهي نفس القبيلة التي تنحدر منها أم برام التي كبرت أسمع عن قصة موتها بالبئر، توفيت أمي وربتني الكثير من عجائز القبيلة إلى أن قرر والدي الزواج من ابنة أحد الوجهاء، لم نتأقلم جيدا ولاحظ الجميع ذلك، كنت أسمع والدتها تنصحها بمعاملتي جيدا حتى إذا كبرت وأمسكت مكان والدي لا تتزعزع مكانتها.

استمر الحال إلى أن تزامن حملها مع خروج أبي للغزو، كان خطأً صغيرا مني ونشبت النار في مجلس النساء، ولأجل معاقبتي قامت بربطي بجذع الشجرة أمام الجميع وتركتني دون أكل و ماء طوال اليوم، وحين عاد والدي تجاهل الأمر ففرحته بالولد والبنت اللذان أنجبتهما جعلته يتناسى فعلتها.

زادت معاملتها لي سوءا وصرت أبدو كمتسول وسط أقراني رغم العزّ الذي ولدت فيه، ومع ذلك صبرت على معاملتها ولم أشتكِ وأحببت أخوي أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، وصارت والدتها تتردد كثيرا عليها وقد تغيرت نصيحتها إلى: "تخلصي منه، وستضمنين مستقبل ولديك".

وهناك تجاوزت مضايقاتها لي كل الحدود، فقد صارت تعطي القطع الفضية لأقراني حتى يوسعوني ضربا ثم يذهبون لشيخ القبيلة -والذي هو أبي- يشتكونني إليه فأحصل على التوبيخ.

صرت أتمرد على قرارات والدي ولا أقوم بالأعمال الموجهة لي وأهرب من التدرب على استخدام الأسلحة. كنت أفضل الانفراد عند البئر فالأولاد يخافون الحكايات المنتشرة عنه وصارت هذه حجّتها عند أبي، بأني أفتقر إلى مقومات الرجولة التي تظهر عند أقراني.

أصبحت لاحقا أتحداها وصارت جملتها الشهيرة: " نظرات هذا الولد إلي لا تطاق". بدأت خطتها بإقناع والدي بأنني ولد تسكنه أرواح شريرة من كثرة ترددي على البئر، وصار أقراني يدعمون كلامها ويشهدون برؤيتي أحوم حوله، وبدّأت سلسلة من الأحداث المأساوية فَقَدْ فَقَدَ أبي إحدى ذراعيه بينما كان يدرّبني على استخدام "الهونغا مونغا" السلاح الذي اقتناه من أحد السود، ثم مرضت أختي الصغرى وتوفيت واتهمت بأنني السبب في كل ما حدث، وما بدأ كدفاع من شيخ القبيلة عن ابنه تحول لاحقا لكره يتزايد كلما أحس بالضعف لفقدانه لذراعه. وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة صارت السماء برتقالية واحترقت محاصيل القمح ولازالت تلك الذكرى تؤلمني عندما رأيت نظرات والدي وخلفه زوجته يتجهان نحوي وبيد زوجته خنجر،

جريت دون هدف لحين وصلت البئر وهربا من ضربة خنجرها قفزت بالبئر، وهناك احتضنتني تنيبرا وعاملتني كأم.

بدت نظرات أيهم غير مفسرة وحدث نفسه

ــ لا أدري لم لا أصدقه.

ــ أعلم أنك لا تصدِّقني (صار قريبا منه) لا تحاول إخفاء الأمر، والسبب نظرات عينيّ... حتى عندما كنت أتنفس الهواء لم تكن تعجب أحدًا.

مدت تنيبرا يدها لكاليڤو

ــ تعال كاليڤو صغيري، دعْه يذهب لعمله حتى لا يتأخر. (همست قبل أن تغادر) سأعتني بأخيك فلا تقلق، الأخوّةُ ولابدَّ معقدة.

مساء غادرت فريال المشفى مسرعة واستقلت الحافلة لبيت عمها، طرقت الباب ففتحت زوجة عمها

ــ فريال تعرفين أن لدينا جرسا.

ــ آسفة عمتي، من شدة استعجالي نسيت.

ــ تعالي، حضرت الشاي كما تحبينه وقد أحضر أدهم بعض المكسرات.

ــ أدهم هنا؟

ــ لا، أمس عند رجوعنا للبيت وجدناه هنا، وصباحًا عاد لعمله.

ــ عمتي أيهم...

قاطعتها

ــ أخبرني عما فعله معك ومع سمير وقد أسمعته كلاما يسمُّ البدن.

ابتسمت فريال

ــ كنت أود أن أقول أنه طلب منّي أن أساعده بخصوص كتاب ما.

ــ آه... ذلك الكراس الذي كلما دخلت غرفته أجده تائهًا به.

ــ أعتقد، طلب مني مراجعته للتحقق من بعض الأمور قبل أن يكمله.

ــ ابنتي العزيزة كم أحبّك، رغم ما يفعله بك والمشاكل التي يسببها لك لاتزالين تساعدينه، اصعدي لغرفته ستجدينه مرميًّا فوق مكتبه.

تركت فريال حقيبتها وصعدت مسرعة بينما علقت زوجة عمها

ــ جيل اليوم...الكذب متأصل بهم.

دخلت غرفته وأخذت المسودة ثم سحبت الكرسي وجلست تقرأ ما كتب بينما جلست تنيبرا على السرير قبالتها وقد رفعت شعرها عن وجهها ليبدو بنصفيه الجميل والمشوه.

دخل أيهم بعد المغرب للمنزل وتوجه مباشرة للمطبخ

ــ مساء الخير أمي ...أنا جائع.

ــ ابحث بالثلاجة قد تجد شيئا يُؤكل.

ــ سامحك الله يا أمي كأني كنت متجها لأخذ الأكل من الحائط، هل سيعود أبي اليوم؟

ــ قال سيعود غدا ويظل معنا لفترة أطول.

ــ أعتقد يا امي أن أبي تزوج عليك وهو يموه الأمر بتجارته (نظرت إليه وضحكت وقد وتره الأمر) أمزح... أنا أمزح أبي لا يفعلها، سأتمدد قليلا بالصالون. (دخل الصالون فرأى الحقيبة مرمية على الأريكة فتحها فوجد بطاقة تمريض فريال فعاد للمطبخ) هل فريال عندنا؟

ــ أجل صعدت لغرفتك لقراءة ما تكتب.

قبل أن تكمل كلامها كان قد خرج وصعد مسرعا فتح الباب وكانت قد أغلقت المسودة ووضعتها على الطاولة ورأسها مطأطأ.

ــ فريال...فريال ابنة عمي المفضلة، ذلك الذي قرأته لا يعبر إطلاقا عن رأيي بك في ذلك الوقت، التعابير التي تقول أنّك كنت مزعجة وغيرها فقط لأزيد من الدراما في الحكاية.

وقفت وأبعدت الكرسي بقدمها ورفعت رأسها كانت دموعها تخنقها لدرجة عجزت عن الكلام

ــ لم أخفيت الأمر عني؟

ــ (تلعثم) عم تتحدثين؟

مشت باتجاهه وصرخت

ــ لم يكن يجب أن تتحمل الأمر كله لوحدك، كان عليك اخباري (دفعته لحين صار ملتصقا بالجدار) لم يكن لديك الحق... (أراد الكلام فقاطعته) ... لا تكذب.

تجمدت أطرافه أمام بكائها، جلس وظهره للحائط ووضع مرفقيه على ركبتيه وقد سرح بعيدا وحينها انهارت على ركبتيها أمامه

ــ توقفي عن النواح، الأمر لا يشبه اصابتي باللوكيميا ولا يعني موتي القريب.

زادت في حدة بكائها فسحبها إلى صدره وعانقها

ــ لم يكن بإمكان أحدٍ فعل أي شيء لإيقاف الأمر فلا تنزعجي.

مر على الأمر دقائق وقد تشبثت بقميصه

ــ ماذا سنفعل؟

ــ نفعل؟ لن نفعل شيئا فالأمر ليس مرضًا يمكن علاجه بالأدوية، لكنه أتاح لي معانقتك.

ابتعدت مسرعة ووقفت لتنفض ثيابها وتمسح دموعها

ــ لا تأتِ على ذكر الأمر مجددا ولا تحدّثني.

فتحت الباب وقبل خروجها أمسك يدها فعادت دموعها لتبلل خدودها، نظرت إليه

ــ الأمر ليس بذاك السوء صدقيني أنا بخير.

أماءت له برأسها وخرجت، وفي المطبخ راحت تحضّر الطاولة مع زوجة عمها في صمت إلى أن التحق بهما أيهم للعشاء.

عم الصمت الجلسة إلى أن قطعته فريال

ــ عمتي تذكرين حجيلة صديقتي.

ــ أجل تلك الفتاة الجميلة.

ــ هل تعلمين أن جدّها من أبيها إمامٌ معروف، درس بعدة زوايا وتعلم على يد شيوخٍ كبار.

أيهم (بصوت داخلي): تريدين قول أمرٍ لي لا حاجة لتمريره عبر أمي.

ــ لا يا ابنتي، تلك المرة تحدثت مع والدتك عنها وقالت أنّ جدتها مشعوذة (اقشعر بدنها).

ــ أجل جدتها لأمّها.

سقطت الملعقة من يد أيهم

ــ ماذا؟ ...كيف؟

ــ مما حكته لي أن جدتها لأبيها كانت تزور جدتها لأمها كثيرا لإبعاد العين عن زوجها وولدها، وكان جد حجيلة الإمام يحاول جاهدا ابعادها عن هذا الأمر وهدايتها للطريق الصحيح إلى أن وصلت بينهما ذات مرة للطلاق فقرر الذهاب للجدة المشعوذة ليطلب منها ألا تستقبل زوجته مجددا، وهناك رأى ابنتها "والدة حجيلة" فأتته الفكرة وخطبها لابنه، وهناك قامت العداوة بين الجدتين فالأولى وافقت على العرض والثانية اتهمتها بالسحر والشعوذة. (ضحك أدهم رغم محاولته كتم الأمر وضحكت فريال معه)

ــ بنيتي، حجيلة تلك تعجبني فعلا وليس جيدًا أن نحكم على الآخرين بسبب تاريخ أهلهم.

صباح ذلك اليوم جلسا على نفس الطاولة للفطور وعند ذهاب الوالدة لإحضار حقيبتها كي تخرج مع فريال، استغلت هي تلك اللحظة للحديث مع ابن عمها

ــ أيهم فلنذهب لجد حجيلة فهو يعرف الكثير من الأمور لنطلب منه أن يرقيك وسيتركونك وشأنك.

ضحك لكلامها

ــ يا فريال لقد أخذني والدي للراقي وأنا صغير بعد الحادثة وكان عليّ التظاهر بأن الأمر نجح وبرومانيا زرت أطباء نفسيين كثر. (وضعت يدها على كتفه) لم أحس أنك تواسينني؟ أخبرتك أن الأمر صار عاديا.

خرج أدهم وزميله من الثكنة وتزامن ذلك مع خروج شاحنة فارغة مخصصة لنقل الجنود، أوقفها زميل أدهم وتحدث مع السائق ثم أشار لأدهم: هيا ...

ركب الاثنان وسارت الشاحنة وغير بعيد عن الثكنة رأى أدهم انعكاسا على النافذة راح يكبر ويصير أكثر وضوحا، لقد كان الولد الأصهب، خفق قلبه بقوة ثم سمع همسا

ــ "أمقت حبها لك أكثر مني"

التفت للسائق بسرعة وصرخ:

ــ انتبه.

وقف أيهم بباب الصالون

ــ هل عليّ انتظارك مطولا؟ هيا يا أمي أسرعي، فريال لديها عمل وأنا متأخر.

وضع يده على صدره وشهق الأمر الذي جعل والدته وفريال يهلعان.

ــ بني هل انت بخير؟

ــ أجل، أنا بخير...أسرعا لنخرج.

استدار للخروج ومشى خطوتين ثم انهار على الأرض وفقد الوعي، جرت فريال نحوه وقلبت جسده ووضعت رأسه على حجرها بينما جرت أمه لإحضار بعض الماء، كانت عيناه شبه مغمضتين وراح يتمتم: "أدهم ليس بخير".

مرت نصف ساعة وكان قد بدأ في التحسن لكن يداه بدأتا ترتجفان.

فريال: أيهم دعنا نذهب للاستعجالات، فقدانك الوعي يعني أنك مريض.

ــ أنا بخير لكن يراودني احساس سيء فيما يخص أدهم.

قاطعته والدته ويدها على قلبها

ــ بالله عليك لا توترني أكثر.

رن هاتف المنزل فقفز أيهم إليه، والتصقت والدته بذراعه

ــ أدهم...كيف؟ ... أين؟ ...

أغلق الهاتف وجلست أمه على الأريكة تبكي

ــ كنت أعرف، كنت أعرف عندما خرج من المنزل أن أمرا سيئا سيحدث له.

ــ أمي تمالكي نفسك، سمعت صوته يتكلم لابد أنه بخير.

فريال: ماذا حدث؟

ــ اتصلت حجيلة، أدهم بالمشفى كان يركب مع زميله في شاحنة تابعة للجيش وفي طريق خروجهم من الولاية داست على لغم تقليدي وانقلبت.

وصلوا المستشفى وسهلت لهم فريال رؤيته، كان رأسه معصوبا وذراعه اليسرى في الجبيرة وركبته مصابة وحجيلة توصل أنبوب المصل بذراعه، جرت أمّه نحوه لتعانقه لكنها خافت من أن تؤلمه

ــ كيف حالك يا فلذة كبدي؟

ــ (ضحك) أنا بخير (أشار لأيهم الذي شعر بالراحة لرؤية أخيه يتحدث بعدما فكر في أسوء الاحتمالات) ألم تسمعني أطلب حضورك وحدك؟ (تعجب) فريال أيضا هنا، أهلا فريال.

حجيلة: رُكبَتُهُ مخلوعة، وقد أعطيناه مسكنا للألم...

فريال: أي مسكن؟ هذا ليس أدهم الذي أعرفه.

نكزتها بمرفقها: ذاك النوع من المسكن لأن إصابة ركبته جد مؤلمة ونحن ننتظر الطبيب ليعيدها لمكانها.

خرج أيهم بعد أن أمسك ذراع أمه

ــ هيا أمي لنتركهم يقومون بعملهم.

أمسك أدهم يد حجيلة وتكلم وعيناه تفتحان وتغلقان

ــ نونا أنت أعيديها لمكانها ألست طبيبة.

احمرت وجنتاها وأبعدت يده

ــ لا أملك القوة الكافية لفعل ذلك فاصبر لحظات وسيصل الطبيب.

ــ افففففف نونا انت اليوم مزعجة على غير عادتك.

ضحكت فريال وجعل هذا حجيلة في حرج مضعف، مالت إليه وحذرته قائلة

ــ لا تنادني نونا، هذا ليس اسمي.

ابتسم وجعلها ذلك تتجمد مكانها

ــ بلى، أنت نونا... نونا خاصتي.

ــ فريال اهتمي بابن عمك.

خرجت حجيلة وجلست فريال بجانبه

ــ إذن نونا...من كان لينتبه لهذا؟

وفي قاعة الاستقبال مرت حجيلة بأيهم ووالدته تَطْمَئِنُّ عليهما.

ــ كيف حالك خالتي؟ لا تفكري كثيرا سيكون بخير (اتجهت لأيهم بالحديث) كان معه زميلان أحدهما أصيب بكسر في قدمه والسائق برضوض بصدره وإصابة برأسه (لاحظت تعبير وجهه المبهم) أجل أخوك إصابته أسوء، جرح غير عميق برأسه وكسر بذراعه اليسرى وعلى الأرجح كسر بأحد أضلاع قفصه الصدري وخلع بركبته.

مرر أيهم يديه على رأسه

ــ قدّر الله وما شاء فعل، كيف عرفت بما حدث؟

ــ كنت بالاستقبال أملأ بعض الأوراق عندما أحضرهم الاسعاف وتعرفت عليه، سأعود لاحقا لأطلعكم على حالته، اعتني بخالتي.

تركت المكان وهي تتذكر الفترة الصباحية عندما كانت تكلم إحدى الممرضات ثم ابتعدت عن الطريق لتسمح لرجال الحماية المدنية بدفع الحمالات الثلاث وهناك أمسك بيدها وسحبها معه، كان فاقدا للوعي ويد رجل

الحماية تضغط رأسه لتوقف النزيف، لم تحتج لتنظر لوجهه لتعرف أنه أدهم والأدهى والأمر انه رغم كونها طبيبة فهي لم تعرف كيف تتصرف.

في المساء التحق والدهما بالمشفى وبعد أن اطمأن على أدهم غادر رفقة أمهما بينما بقي أيهم جالسا بقاعة الانتظار.

دخلت حجيلة الغرفة واقتربت منه حذرة

ــ لا تخافي أنا في وعيي. (تشجعت وأخرجت مصباحها الطبي ومررته على عينه اليمنى) لدي عين يسرى كما قرأتم في التشريح.

ــ أعلم لكن الضربة برأسك تجعلني أركز على عينك اليمنى، هل خف الألم عن ركبتك؟

نظر لقدمه

ــ لست أُحس بقدمي... (جرت نحو قدميه ورفعت الغطاء) هل حدث شيء ما لقدمي؟

ارتبكت ومررت جزء المصباح السفلي على طول قدمه

ــ هل تحس بهذا؟ (أشار لها بلا فأمسكت بإبهام قدمه وضغطته) والآن؟

ــ لست أشعر بشدك لإبهام قدمي.

جرت نحو باب الغرفة ثم توقفت

ــ كيف علمت أني كنت ممسكة بإبهام قدمك؟

استدارت اليه وكان يحرك كافة أصابع قدمه ويضحك، مشت ناحيته والانزعاج بادٍ على وجهها

ــ أنا آسف أردت رؤية نظرة الخوف تلك بعينيك (احمرت وجنتاها) وتلك الحمرة أيضا.

ــ (ارتبكت) لستُ أدرى عمّا تتكلم.

ــ (ابتسم) تسمين نفسك طبيبة وأنت لا تستطيعين التعامل مع جرح طوله سنتيمتر، من ارتجاف يديك كنت خائفا من أن تُدخلي المقص بعيني بدل قطع الخيط.

ــ ذاك الجرح ليس بطول سنتيمتر... ويداي لم تكونا ترتجفان ...لا تنظر إليّ هكذا.

دخلت فريال فاستغلت الفرصة لتهرب وفي الخارج راحت تستعيد أنفاسها

ــ لم يستفزني كلامه؟

بعد لحظات التحقت بها فريال وبيدها نتائج فحوصات أدهم

ــ نونا تأكدي من هذه الفحوصات فهي تخص أدهم.

ــ اسمي ليس نونا.

ــ (ضحكت) أنا لا أمانع وجود نونا ببيت عمي فقط ليكن في علمك.

ــ (تأففت) ممتاز لا يوجد كسر بأضلاعه مجرد رضة (نظرت لبقية الفحوصات) لا يوجد ما يخيف في فحوصاته لكن سآخذ رأيا آخر.

ــ لم أرك تستشيرين من قبل وأساتذتك يشهدون بكفاءتك، هل تعاملين ابن عمي معاملة خاصة.

ــ بل أعامل ابن عم صديقتي معاملة خاصة.

غادرت فريال لقاعة الانتظار وطمأنت أيهم وكانت تحمل في يدها قهوة مركزة

ــ فحوصاته جيدة، يمكننا أخذه للبيت الآن.

وصلت حجيلة إليهما وكانت تتكلم على الهاتف

ــ أبي تعال لأخذي... كم بعيد؟

أخذ أيهم منها الهاتف

ــ عمي أنا أيهم ابن عم فريال، نحن فعلا نعتذر عن تأخيرها لهذا الوقت... أجل صار أحسن والفضل لابنتك، إذا لم يزعجك الأمر سآخذها مع فريال عندنا بالبيت وفي الصباح سأتأكد من إيصالها بالسلامة... ستكون في أعيننا... أمرك عمي... إن شاء الله.

أعاد الهاتف لحجيلة التي انصدمت من موقف والدها

ــ أجل أبي... أكيد... لا بأس... (أغلقت الخط ونظرت لفريال التي علا وجهها نفس التعبير) هل سمح أبي للتو بمبيتي خارجا؟

فريال: أمتأكدة من أنك كنت تحدّثين والدك؟

ــ أجل قال أنه سيزوركم غدا مع جدتي للاطمئنان على صحة أدهم ويصحبني للبيت.

بعد لحظات كان أيهم يساعد أخاه على ركوب المقعد الخلفي للسيارة، وجلست بجانبه حجيلة أما فريال فقد أخذت المقعد الامامي بجانب أيهم، أدار مفتاح السيارة فأصدرت صوتا وصرخ أدهم رغم ألم صدره

ــ بالراحة عليها، ليست سيارة أبيك لتعاملها هكذا.

فريال: ليس ذنبه سيارتك أصدرت هذا الضجيج صباحا أيضا.

ــ قدتَ سيارتي صباحا.

أيهم: السبب الوحيد الذي يجعلني أتحملك الآن هو أننا لسنا لوحدنا.

خفف من حدة كلامه: كن حذرا فقط... (لم يكمل جملته وكانت السيارة قد عبرت ممهلا مرتفعا، عاد صوته ليعلو) يا غبي انتبه.

تمتمت حجيلة: كل هذا من أجل سيارة.

همس بحيث لا يسمعه غيرها: ليست أي سيارة إنها سيارتي.

تنهدت وحدثت نفسها: يا إلهي سمعني.

وفي البيت تمدد أدهم بالصالون بصعوبة وجلس والده على الأريكة المقابلة له بينما ذهبت أمّه لتسخين الأكل وصعدت فريال مع حجيلة للغرفة لتعطيها شيئا تلبسه، وبعد دقائق نزلت ترتدي ثوبا طويلا بذراعين وقد رفعت شعرها على شكل كعكة وبيدها جهاز قياس الضغط وعلبة الاسعافات.

دخلت الصالون فاستأذن والد أدهم وغادر، جلست بقربه على الأريكة

ــ هل هذه التسريحة على شكل طماطم أم أن رؤيتي تشوشت.

ــ لا هي على شكل كعكعة الدونات (وضعت قليلا من المطهر على الضمادة برأسه دون نزعها) أغمض عينك.

ــ ألا يفترض أن تنزعي الضماد أولا.

ــ أحيانا تتعلم خدعا جديدة (قالت ذلك وهي تنفخ على الضمادة).

وقفت فريال تتجسس بباب الصالون وأفزعها صوت أيهم

ــ ألا يفترض أن ذلك عملك؟

ــ أفزعتني (بدت على وجهها ملامح البراءة وهي تضم يديها أمام وجهها) أنظر إليهما كم يبدوان مناسبين.

ــ أخي وأعرفه سيفسد الأمر.

ــ أعتقده فعل ذلك عندما بدأ بمناداتها نونا.

ــ نونا؟ انت متأكدة؟ (ضحك) مسكينة نونا.

وفي الصالون راحت تقيس ضغطه

ــ ستفجرين ذراعي.

ــ صه دعني أقوم بعملي.

ــ هل يمكنني احراجك بسؤال؟

ــ لا.

ــ لم لازلت عازبة للآن؟

ــ قلت لا للتو، وهذا يعني أني لن أجيبك.

ــ هل السبب كون جدتك مشعوذة؟ (لم تجبه) حسنا سأغير السؤال هل هناك احتمال أنها تناديك بالفأرة؟

ــ لم تسأل؟

ــ ذلك اليوم التقيتها ببيتكم أعطتني...

قاطعته

ــ أيا كان ما أعطتك إياه ارمه.

ــ بصراحة أحببتها، تشبه جدتي لحد كبير...أتساءل كيف سيصير شكلك عندما تصيرين جدة.

تَكَلَّفَت على وجهها ابتسامة

ــ على الأغلب سأظل كما أنا.

قامت من جانبه وراح يراقبها وهي تغادر الصالون

ــ قوية هذه الفتاة ...تعجبني.

دخلت أمه وبيدها صينية الأكل ودخل والده خلفها

ــ والدك سيساعدك في الأكل وانا سأقشر لك بعض الفواكه (جلست على الأريكة المقابلة) حجيلة تلك ابنة حلال وقد بدأت اتعلق بها، أحسها قريبة مني كفريال تماما.

والده: فعلا، تبدو فتاة خجولة لم ترفع عينيها من الأرض طوال تواجدي معها بنفس المكان.

ــ هل تفكر بما أفكر فيه؟ ما رأيك أن نخطبها، رأيتهما المرة الماضية يتحدثان وقد ظهر لي أنهما منسجمان وأيهم صار بعمر الزواج ولديه عمل.

توقف الطعام بحلق أدهم وبدأ بالسعال وصارت الرضة بصدره تؤلمه، نادت أمه على فريال

ــ فريال تعالي يا ابنتي، (توجهت بالكلام لزوجها) انظر ماذا فعلت بالولد بالراحة عليه فهو لا يستطيع المضغ.

وصلت فريال وخلفها حجيلة معلقة على ما يحدث

ــ لا تسعل ستزيد الأمر سوءا.

سلمته كأس الماء وساعدته على التمدد على ظهره مجددا، ألقت نظرة على صدره وكانت الكدمة الزرقاء قد بدأت بالظهور، أخذت أمه الصحن

ــ انا سأطعمك، شكرا يا ابنتي عودا لإكمال عشائكما.

رفعت الملعقة لفمه لكنه تفاداها

ــ شبعت...هل كنت جادة بحديثك عن خطبة أيهم؟

ــ لم لا؟ لقد كبرتما وأقرانكما صار لديهم أولاد.

ــ ها قد قلتها كبرنا لم يكبر لوحده.

ــ عرضت عليك موضوع الزواج ألف مرة وعندما تحولت لأيهم أصابتك الغيرة؟

ــ لا يا أمي، ليس هذا الأمر لكن جدي له فتاة أخرى غير الطبيبة.

ــ (ابتسمت) قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجيلة.

ــ مالذي تقولينه؟ أنا فقط أقترح.

في وقت متأخر من الليل ارتمى أيهم بسريره، فأطلت عليه تنيبرا

ــ كيف حال أدهم؟

ــ يتحسن.

ــ هل اعتذر منك على كذبه؟

ــ إنه أخي ، لذا ليس عليه فعل ذلك.

ــ لقد حاولت حمايته، لأجلك فقط وأرسلت كاليڤو لتحذيره.

ــ أنا متعب، لا أود الحديث.

ــ (بدأت بالبكاء) لا تتركني وتذهب، لا تتخل عني أنت الآخر.

دخل فراشه ونام مباشرة وفي صباح اليوم الموالي وفي وقت مبكر دق جرس الباب وكان الزائر والد حجيلة ومعه جدتها لأمها، دخلا الصالون وكان أدهم ممددا على الأريكة.

حاول القيام ليسلم عليهم لكن والد حجيلة أرجعه لمكانه

ــ لا بأس بني تمدد، صحتك لا تسمح.

حضّرت فريال القهوة ودخلت الصالون بالصينية سألتها جدة حجيلة

ــ هل استيقظت الفأرة؟

ــ أجل وهي تغير ثيابها.

توجهت بالحديث لأدهم

الحمد لله على سلامتك، ألا زلت تملك ما اعطيتك؟

ــ الحقيقة ضاع مني في الحادث.

فتحت العقدة بأسفل خمارها الأبيض واخرجت قطعة جوز اخرى أعطته إياها: توقعت ذلك، أبق هذه معك.

والدة أدهم: شرفتنا بمجيئك، أصب لك قهوةً أم حليبًا.

ــ لا داعي، أين ابنك الآخر؟

والد حجيلة: وعدتني بان تبقي هادئة إن احضرتك.

ــ لست أفعل شيئا (دخل أيهم وسلم على الضيوف أمسكته الجدة من ذراعه) أخبرته ألا يكذب عليك، سامحه فقلبه طيب.

كان يعلم تماما ما تقصد

ــ اسامح من يا جدتي؟

ــ تعال أرني المطبخ.

سارت معه وهي تمسك ذراعه بيد وتتركز بالآخر على عصا الخيزران، وفي الرواق.

ــ نعم جدتي، أنا اسمعك.

ــ سأكلم جد الفأرة فهو إمام وأنت اذهب لاحقا لرؤيته.

ــ هل اخبرتك فريال يا جدة؟

ــ تلك البنت لا تعرف ما هو جيد لمصلحتها، دعنا في موضوعك ...مثلما طلبت منه ألا يكذب عليك سأطلب منك ان تصدقه، تلك التائهة أفعى وتجيد الكذب.

عادت للصالون وكانت حجيلة واقفة نكزتها جدتها بعصاها

ــ ساعة لتحضري نفسك.

ــ جدتي نحن لسنا بالبيت بالراحة على رجلي.

توجهت بحديثها لام أيهم

ــ بيتك جميل وضيافتك راقية، لا تأخذيها مني كوقاحة لكن استخدمي الملح للزجاج ليدخل ضوء الشمس أكثر.

ابتسم أدهم من مكانه وبادلته الابتسامة بينما غادروا، وبمجرد عودة أمه للصالون نادت فريال

ــ ابنتي احضري دلو ماء مع قطعة قماش التنظيف وبعضا من الملح.

أيهم: ماذا تفعلين يا أمي.

علق والده: أمك على الأكيد جنت.

ــ لم أجن لكن العجوز محقة بيتنا لم تعد تدخله الشمس (بدأت هي وفريال تنظيف الزجاج وكلما انتهت من نافذة تنفست الصعداء) صارت نوافذي نظيفة أكثر مما كانت عليه.

انتهى التنظيف ورن جرس الباب وظل كذلك طول النهار فكل العائلة أتت للزيارة، الأمر الذي جعل البيت مزدحما وأدخل أيهم إلى المطبخ للمساعدة.

فريال: أيهم أحضر الكؤوس من أعلى الرف.

ــ أي واحد فيهم.

ــ ذاك، ألا تعرف محل الأشياء بمنزلكم، أدهم عادة يساعدني واليوم ابتليت بك.

سحب كرسيا وجلس

ــ خصلات شعرك الشقراء الملونة بدأت تبهت ولون شعرك الأصلي يزعج عيني.

ــ عندما أتزوج سأعيد صبغه (انتبهت لكلامها) لا أفهم تدخلك في لون شعري.

ــ إذن أنت مصرة على فعلها.

ــ بإذن الله، أولا سنحل مشكلتك عندما يقف أدهم على قدميه، نخبره بالأمر ثم نطلب من حجيلة المساعدة لتوصلنا إلى جدها.

ــ فريال عشت مع الأمر لثمانية عشر سنة وأنت في يوم واحد فضحتني أمام الكل، ألم يفترض بك مشاورتي قبل أن تخبري جدة حجيلة.

ــ على مهلك، لم أخبر أحدا، هل قالت لك شيئا؟

ــ لا عليك انسي الأمر.

مر شهر تقريبا وأدهم يتعافى في البيت وذلك اليوم استيقظ باكرا ووقف أمام المرآة

ــ شكرا أمي العزيزة من يوم صرت تنظفين بالملح صرت أشعر بالهدوء في البيت (لمس الجرح الذي في رأسه ثم رفع القميص فوجد ان لون الكدمة قد تحول إلى البنفسجي) اليوم أنزع الجبيرة وألتقي نونا.

أطل أبيهم

ــ هيا أسرع، تعلم أن المستوصف يغلق عند منتصف النهار.

ــ لن أذهب للمستوصف، المستشفى أحسن.

ــ قلت المستشفى، لا مشكلة، القميص لا يناسب السروال كما أنك تعرج فلا تنسى العصا.

ــ لن أستخدم أي عصا، أعرني قميصك الأسود.

ــ كم تدفع ثمنه؟

ــ قلت بنفسك لقد ربحتَه في مسابقة للجامعة لم على الدفع؟.

ــ لا بأس أنتظرك في السيارة.

بعد انتظار طويل في غرفة العلاج أتت الممرضة وبيدها مقص فأشار أدهم لأخيه الذي أوقفها

ــ آنستي، آنستي... الأفضل أن تنادي الطبيبة حجيلة، هي تعمل هنا وأوصت بأن نناديها عندما ننوي نزع الجبيرة.

لم يقنع كلامه الممرضة لكنها سرحت في وسامته وابتسامته فذهبت للبحث عنها ولم تتأخر في العودة، دخلت حجيلة

ــ مرحبا كيف الحال؟

أيهم: بخير وأنت؟

أدهم: أهلا نونا (نظرت إليه بانزعاج) بقي أسبوع لنزع الجبيرة.

ــ سايريني من فضلك، أحس أن ذراعي صارت أحسن.

سحبت كرسيا وجلست بجانبه تحمل المقص، ثم بدأت في العمل وأيهم يراقبهما لحين أُدخل كهل في عقده الرابع لنفس غرفة العلاج ومُدد على سريرٍ غير بعيد.

خاطبت حجيلة الطبيبة التي تفحصه: لا يزالون يأتون به؟.

ــ أجل هذه المرة الثانية في نفس الأسبوع.

نظرت لأدهم

ــ انظر إليه، هذا مصير المدخن، توقفت كليتاه عن العمل ولم يستطيعوا اجراء عملية له بسبب حالة رئتيه وقلبه.

أيهم: أدهم لم يدخن منذ الحادثة، صار لديه ما يشغله عن السجائر الآن.

رفعت الطبيبة كم القميص عن ذراعه لتركب المصل وهناك لفت انتباه أدهم وشم على ذراعه، أشار لأخيه لينظر، انتبهت عليهما الطبيبة

ــ الوشم يقرأ تينيبراروم "Tenebrarum " فرقة من الميتال بدأت نشاطها سنة 1990، أذكر بعض أغانيها.

حجيلة: كان وقتا صاخبا.

ــ فعلا لكن هذه الفرقة وأمثالها لديهم طابع ظلامي وهو الأمر الذي كان يدفع الشباب لاكتشافها حتى اسمها مستمد من الظلام، لست أذكر من الإيطالية أو اليونانية.

أنهت حجيلة عملها وأدهم سارح في وجه أخيه وعند خروجها خاطبه: تينيبراروم...

أيهم: تنيبرا...

غادرا المشفى وركبا السيارة وهما يتناقشان في الأمر.

أيهم: قد تكون مجرد صدفة.

ــ لا أظن، من البداية عرفت أن هذا الاسم غريب.

ــ ما به اسمي؟

ظهرت على المقعد الخلفي، وكاد أيهم يفقد السيطرة على المقود

ــ اللعنة عليك أفزعتني.

ــ الآن صرت تلعنني كأخيك.

أدهم: ماذا تريدين؟

ــ لم أعد أجد راحتي في البيت بعد ما فعلته أمكما ولا فرصة لدي لألتقيكما.

ــ ها قد التقيتنا، ماذا تريدين؟

ــ التحدث إليكما كما كنت أفعل قبلا...أليس كذلك ابني العزيز.

أيهم: من تنادين بابني العزيز (اختفت مما زاد فضوله) ماذا قصدت بكلامها ذاك.

ــ ليس وقته.

ــ ألا زلت تخفي عني الامور؟

ــ مجرد تفاصيل، أطلعك عليها لدى وصولنا.

ــ تفاصيل، تعني أنك تخفي امورا عني مجددا.

ــ لا أنوي اخفاء أي شيء.

عند وصولهم للمنزل انفردا في الصالون

أدهم: حين كنا في البئر أخبرتني أنها تريدني لأنضم إلى أبنائها.

ــ بأبنائها تقصد ذاك الولد الأصهب والرضيع المخيف.

ــ كما أنها تعلقت بي لتخرج...أنا آسف.

لم يستطع أيهم التعقيب على الأمر وقطع حبل أفكاره جرسُ الباب، قام ليفتحه وكانت كل من حجيلة وفريال، دخلا الصالون.

فريال: لقد أخبرت حجيلة كل شيء ووعدت بالمساعدة بقي أن تخبر أدهم وسنجد حلا.

ارتبك أيهم ورفع صوته

ــ أخبرتها ماذا؟ يا فريال الغبية اتفقنا أن يبقى الأمر سرا، اذهبي أخبري بقية سكان الكوكب يا حمقاء.

أدهم: هل يفوتني شيء؟

فريال: ألم تخبره؟

أيهم: فريال يا غبية أنت تعقدين الأمر.

أدهم: يخبرني ماذا؟

حجيلة: أنه يرى أشباحا.

أدهم: أحسنت يا اخي، حتى عندما توقعت أن تتصرف بعقلانية غلبت الرعونة طباعك.

أيهم: حدث الأمر بسرعة كنت سأخبرك.

أشار أدهم بيده لحجيلة لتجلس وكذلك فعلت فريال.

بعد لحظات صار الهدوء قاتلا في المكان حتى تحدثت حجيلة

ــ أنا لم أصدق مثل هذه القصص في حياتي، كما أن الأشباح غير موجودة.

فريال: لكنها كذلك.

حجيلة: لا، لا وجود للأشباح عندما يموت الإنسان تصعد روحه للسماء ويتحلل جسده على الأرض هذه قناعتي منذ الصغر، أي كان ما ترونه فهي كيانات أخرى.

أيهم: حصلنا على أول خيط، اسم الفرقة التي كانت موشومة على جسد ذاك الرجل بالمشفى.

أدهم: "تنيبرا"، "أم برام"...

أكمل ايهم: "كاليڤو" و"نوكس".

ــ ما قالت زميلتك تلك عن أصل الكلمة.

ــ إيطالية أو إغريقية.

أيهم: أظنني أعرف شخصا يمكنه مساعدتنا، أخرج كمبيوتر والده المحمول من خزانة الصالون وشغله، وبعد قليل من المحاولات صار متصلا بالسكايب يكلم رجلا حاد النظرات ذا بشرة مُسْمَرَّةٍ بفعل الشمس: هذا صديقي من رومانيا طالب تاريخ ويهتم باللغات، عملنا معا في إحدى المطاعم أثناء العطل.

بدأ يكلمه بالرومانية وكل مرة يشحب لونه أكثر وأخيرا ودعه وأغلق الكمبيوتر ثم راح يردد كأنه موسوعة مفردات

ــ تنيبرا "tenebra" تعني الظلام كما توقعنا، أما أم برام والتي ظننتها أُمّا لولدٍ يدعى برام ظهر انها كلمة واحدة هي في الأصل "umbrăm " وتعني الكآبة أما كاليقو "caligo" فهو اسم فراشة لكن صديقي يقول أنّها متصلة ببقية الاسمين وعلى الأغلب تعني الضباب.

أدهم: أتوقع أن نوكس تعني الليل (نظر الجميع إليه) يشبه اسم لعبة فيديو كنت ألعبها قبل سنوات.

حجيلة: واثقون تريدون مساعدة جدي؟

فريال: هل أفهم أنك تتخلين عنا؟

ــ لا أبدا، رغم أن عقلي لم يتقبل بعد كل هذه الأحداث لكن ليس هذا سبب سؤالي، جدي نوعا ما لا يطيقني...بسبب مظهري، سأوصلكم وأنتم أخبروه أنني أرسلتكم، لكني لن أدخل.

أيهم: أيا كان ما يريحك.

غادر الأربعة في سيارة أدهم الذي كتم رغبته في الصراخ بأخيه، وصلوا أحد الأحياء الشعبية ومشوا داخلها، وفجأة ظهر رجل من العدم وعانق حجيلة التي ابتسمت بشيء من الخوف وكاد أدهم يفقد صوابه.

ــ أهلا بابنة أخي، كيف حالك؟

أبعدته بالقوة: لا تضمني ماذا سيظن الناس؟

وضع يديه على خصره وأشار للبقية:أتيت مع ضيوف؟

استدارت لفريال وتجنبت نظرات أدهم الغاضبة: هذه صديقتي وابني عمها، فريال هذا عمي الصغير الذي حدثتك عنه.

نكزت فريال أدهم بمرفقها فمد يده لمصافحة الرجل وكذلك فعل أيهم.

حاولت حجيلة التملص: أنت أوصلهم لجدي وأنا لدي عمل.

وضع يده على كتفها وعانقها بينما سار أمامهم: لن تذهبي لأي مكان، صرت تتجنبيننا.

كان أدهم على وشك إمساك الرجل من خلفه لكن فريال علقت: لا تفتعل لنا فضيحة، الرجل عمها وأصغر منها بثلاث سنوات.

أعاد يده لجيبه وهو يرى ابتسامة أيهم المستفزة، وصلا لبيت بُنِيَ من القرميد وعند دخولهم رحبت بهم جدتها: أهلا حجيلة بنيتي لم تزوريني منذ وقت.

أخفضت صوتها: أهلا جدتي، هل جدي بالبيت؟

ــ يأخذ قيلولة، استريحوا سأوقظه.

ــ جدتي انا ذاهبة للمطبخ، لا تخبريه أني أتيت.

ــ لم لا تخبرني؟

وقف جدها بالباب فشكل ظلا طويلا، كان طويلا وعريض الكتفين ويرتدي سروالا تقليديا أبيض اللون بقميص بنفس اللون وعمامة صفراء على رأسه.

ــ أهلا جدي (قامت من مكانها ووقفت على رؤوس أصابعها لتقبل رأسه وما إن فعلت حتى نكزها بعصاه) يا جدي توقفوا عن ضربي.

ــ متى تضعين قطعة قماش على رأسك هذا.

ــ زوجني يا جدي وسأضعها.

نكزها مجددا بعصاه

ــ طويلة اللسان، اغربي عن وجهي وأحضري سبحتي من الغرفة.

خرجت بلمح البصر بينما اقترب هو وجلس بالقرب منهم

ــ أتيتم تخطبونني في حجيلة؟

أيهم: الحقيقة نحتاجك في أمر.

ــ عندما رأيت نظراته (أشار لأدهم) توقعت أنه أتى خاطبًا.

تكلم عمها: أبي حجيلة لا تزال صغيرة، ستعقدونها بفكرة الزواج.

دخلت حجيلة ووضعت السبحة بيد جدها وجلست بجانبه وأشارت لعمها للقيام، فتحجج بالخروج ليلتقي رفاقه.

ــ أنا أسمع كيف أستطيع مساعدتكم؟

سكت الجميع عدا أدهم

ــ الحقيقة هي مشكلة قديمة لم نفكر في إيجاد حل لها إلا الآن...

مرت ساعة ونصف والجد يستمع للأخوين ثم تحدث

ــ لم انتظرتم كل هذا الوقت.

أيهم: كنت خارج البلاد وظننتني مجنونا كوني ظننت أني الوحيد الذي يشاهد كل ذلك، وفي الحقيقة كنت أصدق كلامهم إلى أن وقع الحادث لابنة عمي.

ــ لا تزال البئر موجودة؟

ــ أغلب الظن أنها لم تردم.

فريال: لا تزال موجودة، كنت هناك قبل ثلاثة أشهر وهي لم تتغير.

ــ برأيي أن أذهب إلى هناك وعلى أحدكم التطوع لأخذي.

أدهم: أنا سأصحبك إلى هناك.

أيهم: سآتي أيضا.

وضع الجد يده على رأس حجيلة وكانت ثقيلة لدرجة أنها طأطأته

ــ أحسنت يا حفيدتي، فخور بك.

في طريق عودتهم أوصلوا حجيلة لبيتها ثم فريال التي قطع سمير طريقها قبل دخولها للمنزل

ــ مساء الخير فريال.

ــ أهلا سمير، كيف حالك؟

ــ ألا ترين أنك صرت تتجولين كثيرا مع أولاد عمك؟

ــ أجل قليلا هناك بعض الظروف الخاصة فكما تعلم حادث أميرة ثم أدهم...

ــ الصراحة لست أطيق هذا بالمرة، أنا سأتزوجك ولست أتزوج ظروفك، ركزي على عملك وعليّ وإلا تعاملت معك بأسلوب آخر.

ــ لن تتزوج ظروفي؟ تتعامل معي بأسلوب آخر (وضعت يديها على خصرها) أمامك أبي أخبره أنك لا تريدني أن أقضي الوقت مع عائلتي، ضع شروطك واعتبرني موافقة.

ــ أنت أخبري والدك أن هذا ما أريده منك وهو سيخبرني جوابه.

تهكمت: ماذا؟ أنت تمزح.

ــ لست أفعل، وها أنا أخبرك بقراري سأعيش ببيت أهلي ولن أسمح لأحد بأن يملي عليّ تصرفاتي لا أنت ولا أولاد عمومتك.

نقرت بقدمها ثلاث مرات ثم نزعت الخاتم من اصبعها وامسكت بيده، وضعت الخاتم وأغلقتها.

ــ أنا وأنت لسنا لبعض.

ــ (اصفر لونه) مالذي تقولينه؟ فريال...ليس هذا ما قصدته.

ــ أعلم لكن لا يمكنني المواصلة في علاقة من طرف واحد، رضيت بك وبظروفك وقدمتك لعائلتي وتحديت الكل رغم رفضهم وعندما احتجت منك تقبل ظروفي لمرة واحدة...

ــ دعينا نتحدث في الأمر.

فتحت والدتها الباب

ــ ماذا تفعلين أمام الباب؟ أهلا سمير تفضل.

ــ أمي سمير كان مغادرا.

دخلت الصالة وكان والدها يكلم جدتها التي تتذكر أمرا وتنسى الكثير، جلست بجانبها وهمست لها

ــ جدتي ما رأيك ان نذهب لبيتك وآخذك لزيارة قبر جدي.

لمعت عيناها وتكلمت: ابني خذني لزيارة قبر أبيك ولنبقى أياما ببيتنا.

ــ يا أمي انتظري ليوم عطلتي وآخذك.

ــ (همست لجدتها) نطلب من أدهم وأيهم أخذنا.

ــ يأخذني ابني أدهم.

ــ أمي أدهم تعرض لحادث ولا يمكنه القيادة.

ــ وعديم النفع أيهم؟ سآخذ كنتي معي، زوجتك أكرهها لن آخذها.

أبو فريال: سنرى أمي.

لم تتوقف الجدة عن ذكر الأمر طوال اليومين التاليين حتى أن فريال أعطتها الهاتف وتكلمت مع والدة أدهم لتقنعها بالذهاب وهي الأخرى تحمست للأمر وأقنعت زوجها.

في اليوم الثالث توقفت سيارتان عند البيت القديم بالقرية فقد حضرت الجدة مع ابنها وكنتيها إضافة إلى أحفادها الثلاث، نظفوا المنزل وبقوا مساء اليوم مجتمعين في الصالون.

همس أيهم لفريال التي بدأت تنعس

ــ أين خاتمك؟

ــ ماذا؟ أي خاتم؟

قالت ذلك وغفت ورأسها بحجر جدتها التي تثاءبت

ــ أيهم أعطني ذلك الغطاء لأضعه عليها.

قام بتغطيتها وهو يتأمل جفنيها الطويلين

ــ جدتي منذ مجيئنا وأنت تتذكرين اسمي ولم تنسي من أكون أو تخلطي بيني وبين أدهم.

وضعت يدها على رأسه

ــ أنت ابني الطيوب الذي كبر ليصير وسيما وقريبًا أفرح به.

انشرح صدره لكلامها

ــ يعني لست تفضلين أدهم علي.

ــ (ضحكت) أنت هربت بعيدا وأدهم بقي معي لكن لا يعني أني أفضله عليك.

أم أيهم: ابتعد عن جدتك دعها ترتاح، أدهم بني اصعد لترتاح قليلا.

كانت ليلة مقمرة، صعدا الغرفة التي اعتادوا النوم فيها وعندما تمدد أيهم استدار للنافذة وضحك.

أدهم: مابك تضحك لوحدك؟

ــ النجوم حمراء.

مال أدهم لينظر من النافذة

ــ لا بيضاء.

أشار له بالاقتراب والجلوس بقربه ثم ساعده على التمدد: والآن كيف تبدو؟

ضحك أدهم

ــ حمراء.

اقتربا من الزجاج وكان سليما وحينها أشار أيهم لبيت غير بعيد عنهم كان على سطحه عمود انارة لون مصباحه برتقالي يصل ضوؤه إلى نصف النافذة، تسابقا على الدرج للصالة أين ينام والدهما.

ــ أبي نمت.

ــ ليس بعد، البعوض لا يسمح لي بالنوم.

ــ أبي جاركم يضع إنارة برتقالية على السطح.

ــ ليس جارنا بل زوجته، منذ حوالي ثلاثين سنة وهي تزعج جديك به، الواضح عرفت بحضورنا وهي ترحب بنا بطريقتها الخاصة.

ــ لماذا؟

ــ قصة طويلة، عندما تزوجت ووالدتكما أحضرنا تلك المصابيح الكبيرة والملونة وعلقناها على حدود المنزل وقد جعلها هذا تفقد صوابها بحجة أن الضوء الأخضر يزعج نوم بناتها في الغرفة وأتى زوجها وحاول افتعال مشكل وجدتك عيرته بأنهم مجرد بنات، فعندما ولدت زوجته ولدا علقت ذلك المصباح لتكيدها.

أدهم: لا أفهم.

ــ لم يرزقنا الله الذرية لأربع سنوات في حين أنجب أعمامكم البنات، كانت تحاول رد اعتبارها من يوم عيرتها جدتك.

أيهم: لكنني وأدهم ولدنا وهناك الآن ست ذكور في أولاد عمومتنا.

ــ بني أهل القرية ليسوا بثقافتنا، لو تربيت وأنت تشاهد جدتك تتشاجر مع نساء القرية على دلو مكسور الذراع ماكنت لتسألني.

في صباح اليوم التالي وصلت سيارة أجرة ونزل منها جد حجيلة، رحبا به وأخذاه للبئر، كان الجو حولها كئيبا ومائها قد جف تاركا بقعا زرقاء نتنة الرائحة.

سألهم الجد: هل هذه البئر على أرض مملوكة؟

أدهم: لا، هي تتبع الغابة.

أخرج الجد هاتفه وتكلم مع أحدهم يطلب منه احضار المعدات.

أيهم: ماذا سنفعل؟

ــ لدي بعض المعارف هنا، سيأتي أولادهم لمساعدتنا في الحفر.

أدهم: لن يسألوا عن السبب؟

وصلت شاحنة صغيرة وترجل منها شباب بثياب رثة تستخدم في العمل وكلما اقترب واحد منهم من الجد قبل يديه وحياه بجدي، كانوا حوالي خمسة.

تكلم أحدهم: أين نحفر جدي؟

ــ لنبدأ بتهديم السور حوله، شباب رضي الله عنكم صاحبكم هنا نجى من حادث مميت لا تتعبوه كثيرا.

بدأ الشباب الحفر وهم يتغامزون حول أيهم ابن المدينة الذي لا يبدو أنه حمل معولا من قبل.

قارب الوقت منتصف النهار وبدأ أهل القرية بشم رائحة غريبة نتنة مصدرها البئر مما دفع ببعض شيوخها للتوجه ناحية الجد.

ــ السلام عليكم، كيف حالك؟ مر زمن طويل على زيارتك لنا.

ــ شكرا يا شيخ ابنتي شفيت بعدما رقيتها من كان يقول أنها ستعود لطبيعتها، هي الآن متزوجة وأم وتدعو لك دائما.

الجد: وعليكم السلام، حفظ الله الأولاد.

ــ تصدق يا شيخ، كنا نحس أن هذه البئر ملعونة، وتأكدنا بعد أن شممنا هذه الرائحة.

بدأ الشباب يتلثمون وهم يواصلون الحفر دون ملل.

ــ يا شيخنا لم لا نقرأ القرآن لنبعد أيا ما كان في البئر؟

جلسوا جميعا غير بعيد عن البئر وبدأوا في ترتيل القرآن، غاصت قدم أيهم في بقعة رطبة فراوده شعور قديم بالعجز والخوف استدار لأخيه وكان رغم الألم يواصل الحفر، تشجع وراح يواصل عمله وهو يراقب أخاه لحين رآها تتعلق بقدمه وتبكي بينما أدهم يتجاهلها: لم تفعل أمرا كهذا، (تحول صوتها إلى ما يشبه الزئير) لن اسامحك، كيف تخون والدتك؟ .

راح صراخها يزيد ولا يبدو أن أحدا يسمعها غيرهما لكن الجد لاحظ العرق الذي بدأ يصيبهما على غير بقية الشباب فرفع صوته بالقرآن.

بدأت التربة تنجرف لأسفل وزحف منها الرضيع مارا بين قدمي أيهم نحو الجد ورفقائه، كان يبدو عدوانيا ولعابه غير عادي وراح يزحف بسرعة نحوهم، نادى أدهم: يا جدي.

فهم الجد أن هناك ما لا يراه وما لا يحسه، قلب صفحات المصحف ووقف على قدميه وراح يجهر بالقراءة وتبعه البقية دون أن يسألوا عن السبب، وصل الرضيع أمام قدمي الشيخ وزرع ذلك الرعب في قلب الأخوين لكنه توقف وجلس وصار جسده يرتجف ويهتز كأنه لعبة موصولة بالكهرباء ورافق ذلك صوت يشبه صوت المحرك عند تشغيله، ظل يهتز طويلا ولعابه يملأ الأرض وكلما اهتز رجع مسافة للخلف لحين عاد ليحبو ويغوص مجددا في وحل البئر.

استيقظ والدهما متأخرا بعد أن وصلت رائحة البئر للمنزل، فتح عينيه وكانت فريال تحضر القهوة لجدتها

ــ صباح الخير عمي.

ــ صباح الخير ما هذه الرائحة؟

ــ أعتقد أنها قادمة من البئر القديمة جهة الغابة.

ــ ووصلت إلى هنا؟

دخلت زوجته: شباب القرية يقومون بحفرها وسمعت صوت القرآن يتعالى من هناك وأنا عند الجارة.

ــ ماذا يجري بالضبط؟ أين الولدان؟

الجدة: ولداي يساعدان شباب القرية (ابتسمت) أخيرا انا أتفاخر بهما أمام الجميع.

ــ ألا ينويان الابتعاد عن المشاكل؟ ثم أيهم يخاف من تلك البئر.

الجدة: قال يخاف قال، هل هو طفل صغير؟ انظر إليه بتلك اللحية صار رجلا (مدت يدها ودقت على خشب الطاولة) أبعد الله عنه عيون الحاسدين.

رن هاتف الوالد فأجاب: على مهلك يا اخي...أنا اسمعك...سأرى ما في الأمر، (التفت لفريال) والدك يتصل بك وهاتفك لا يرن وهو يسأل عمّا حصل مع سمير.

شحب لونها وقد دخلت أمها وبيدها صينية القهوة

ــ هل تشاجرتما؟

ــ لقد قررنا فسخ الخطبة.

ــ قررتما أم قرر هو؟ كان قلبي غير مرتاح من هذه الزيجة.

ــ أمي ليس هذا ما حصل، أنا من فسخ الخطبة لا أظنه يناسبني.

والد أدهم: لكنك كنت متحمسة وأنت من ضغط علينا للموافقة.

ــ لم أكن أعرف مصلحتي، ظننت أنه في عمري يفترض أن أكون قد أسست عائلة...

قاطعها عمها: لا عليك سأحل المسألة مع والدك.

عند البئر أخذ الشباب بعض الراحة وأحضر لهم أهل القرية بعض القهوة مع الحلوى بينما واصل أدهم الحفر.

أيهم: توقف عن الضغط على نفسك، ارتح قليلا وسنواصل العمل.

ــ أريد ان أنتهي من هذا الأمر.

استسلم عندما شعر بألم في صدره وذهب للجلوس بالقرب من الشيخ الذي واصل قراءة القرآن ولم يتوقف إلا وقد أشار لآخر ليكمل ثم استدار يحدثه

ــ كم مترا وصلتم؟

ــ حوالي العشرة لكن عملنا بسرعة واستهلكنا الكثير من الجهد.

استدار الجد لأحد الشباب: ألا يزال اخوك يعمل بالبلدية؟

ــ أجل جدي، وترقى العام الماضي ...جدي هل تلمح إلى استخدام وسائل البلدية؟

ــ هل يمكنه مساعدتنا؟

وقف الشاب: خمس الدقائق وأكون هنا.

بعد ربع ساعة عاد يقود جرافة صغيرة، وهو ما ساعدهم على توسيع دائرة الحفر، بعد ساعة بدأت المياه الباردة تتسرب للسطح وغرقت قدما أدهم أكثر، خرجت يد من التربة وأمسكت قدمه فابتسم

ــ كنت لأخافك وأنا طفل.

رفع المعول وضرب مكان خروج اليد كأنه يلعب الغولف فطارت جمجمة موحلة من المكان واستقرت قريبا منه، جرى أيهم والشباب ناحيته، أدخل أيهم يديه في الوحل يبحث عنها ثم أخرجها، كانت جمجمة غريبة الشكل.

وقف الجد وبدت ملامح الفرحة على وجهه بينما تكلم أحدهم

ــ علينا الاتصال بالبلدية والتبليغ عن الأمر.

أدهم: أجل علينا ذلك.

أخذ صورة للجمجمة دون اِبعاد ما تعلق بها وخرجوا جميعا من الحفرة موقفين بذلك أعمال الحفر لحين تحضر السلطات.

جرى أدهم نحو البيت ونادى فريال التي فتحت الباب: نعم ابن العم ادخل.

ــ رائحتي كريهة إضافة إلى ثيابي المتسخة، أريد منك خدمة (أشارت برأسها موافقة فهمس) رقم هاتف نونا.

رفعت حاجبا واخفضت الآخر: ستكرهني لذلك.

ــ من فضلك (راح يترجاها بنظرات عينيه) الأمر يتعلق بجمجمة وجدناها أثناء الحفر.

ــ سجل عندك (أملته الرقم) أين ستكتبه؟

أشار لرأسه: حفظته (عاد لموقع الحفر واخذ هاتف أيهم وأراد طلب الرقم ففوجئ به مسجّلا على الهاتف، واجهه) ماذا يفعل رقم نونا عندك؟!

ــ (سخر منه) ارفع صوتك أكثر ليسمع جدها، أخذته عندما تعرضت للحادث حتى نطمئن عليك.

قرّب الهاتف من أذنه وابتعد عن الجميع

ــ مرحبا أيهم كيف الحال؟

ــ أيهم بخير شكرا على السؤال، هذا أنا نونا.

ــ أدهم كيف حالكم؟ هل التحق بكم جدي؟

ــ أجل، نونا وجدنا هنا جمجمة ولدي بعض الشكوك أتمنى لو تشاركينني الرأي، سأرسل لك الصورة لا تقطعي الخط.

أرسل لها الصورة: لحظة انا أشاهدها الآن...دون أن أعرف شكوكك سأؤكدها بقولي أن نصف الجمجمة فعلا مكسور الفك السفلي والعلوي أما بالنصف الآخر فالفك العلوي به تشوه بارز والعظم الوجني مغاير تماما لأي شيء درسته.

ــ يعني؟

ــ يعني شبحنا ولدت بتشوه خلقي ومجرد تخيل كسو نصف تلك الجمجمة باللحم يجعل عقلي لا يتقبل الصورة.

ــ ذلك ماكنت أشاهده منذ طفولتي، أخبريني وبقية الكسور؟

ــ لا أستطيع الجزم فقد تكون بسبب ظروف ما قبل الوفاة أو تأثير الطبيعة عليها.

ــ سأتركك الآن لعملك...

ــ (قاطعته) لحظة.

ــ نعم.

ــ اعتني بنفسك جيدا ...لو سمحت.

ــ (ابتسم) سأفعل، إلى اللقاء.

رمى الهاتف لأيهم الذي كاد يوقعه

ــ انتبه يا أخي كدت تكسره.

أتت فريال ومعها عمتها وهي تحمل طعام الغداء لكل من كان يساعد في الحفر وبعد انتظار ساعة أتى موظف من الدائرة القريبة وقال أنّ وصول المختصين سيأخذ وقتًا.

أمسك أيهم رأسه: في الخارج يعتبر هذا كنزا يتسابق حوله علماء الآثار.

أدهم: بالنسبة لهم قد تكون هذه مجرد جماجم من الحقبة الاستعمارية.

كان الشباب قد جهّزوا ما يشبه الدرج باستخدام التراب الذي أخرجوه من البئر التي صارت فوهتها بحجم الغرفة، نزل عبرها أيهم وراح يحرك يديه في الوحل، نزل خلفه أدهم

ــ هاي قد يكون هناك أشياء حادة انتبه.

شاركه البحث وبدا بقية الشباب بمساعدتهم في استخراج بقية العظام وحملها خارج البئر، عند احصاء عدد الجماجم كان عددها يفوق العشرة.

فوجئت فريال وهي ترى ذاك الكم الهائل من العظام

ــ هل هذه مجزرة أم ماذا؟

قام أدهم بتصوير الجماجم وأرسلها لحجيلة ثم أعاد الاتصال بها

ــ أخبريني ماذا يمكنني أن أعرف من هذه الجماجم؟

(سمع صوت تقليب صفحات) ماذا تفعلين؟

ــ لا تتوقع أنّ هناك موسوعة بعقلي، استشير كتاب التشريح، الصورة الثانية التي أرسلت هي بالتأكيد لولد غير بالغ.

ــ يعني هذا أحد كوابيسي.

ــ لا أظن بإمكاني تحديد البقية.

ــ لا عليك ساعدتني بما فيه الكفاية.

ــ هناك أمر غريب، العظام التي وجدتموها لو كانت من حقبة الوندال لكانت أعمق كما أن وجودهم في نفس الطبقة يعني أنه لا يوجد مجال زمني طويل بينهم.

ــ عالمة آثار؟ لم أكن اعلم.

ــ مجرد ملاحظات...إلى اللقاء.

أتى المساء ولم يصل أحد من الخبراء، اقترب أحد الشباب من الجد الذي لم يترك المصحف من يده: يا جدي...يراودني إحساس سيء بخصوص ترك المكان هكذا للصباح.

اقترب أدهم: انا سأظل هنا للصباح.

أشار له الجد بالنفي: لا يمكنك البقاء هنا.

جلس القرفصاء أمامه: انا معتاد على العمل الليلي.

اقترب أيهم بعد ان أخبره أحد الشباب بالقرية بما يجري من حوار.

ــ أنت عد للبيت خذ دوائك ونم وأنا سأظل هنا.

تكلم أحد الشيوخ: ظننت أن أولاد المدن يخافون من ظلّهم وظهر أن أولادنا من ترعبهم بعض العظام القديمة (نادى على ولده) تعال ستبقى وأصحابك هنا وسأرسل للبيت ليُحضروا لكم بعض الأغطية وشيئا تفترشونه.

أدهم: لا داعي لكل هذا، سأتكفل بالحراسة.

الجد: أفضل بقاءكم معا وأنا سأظل هنا أيضا تحت هذه الشجرة.

وصل الليل ووالدة أدهم لم تتوقف لحظة عن الذهاب للباب ثم النافذة لحين دخل زوجها

ــ أين الأولاد؟

ــ سيظلون الليل بالقرب من البئر لعل الخبراء يصلون صباحًا.

فريال: ما هذا الجنون؟! أدهم لم يشفَ بعد، وذلك الجبان يفكر بالمبيت بالقرب من كومة عظام بشرية؟

ــ فريال بح صوتي وكأنّي لا أكلم أولادي لم أرهم يومًا مصرين على أمرٍ هكذا.

والدة أدهم: قلبي لا يرتاح لتلك البقعة من يوم سقوطهما بهاو أنا أكره العودة لهذه القرية.

أشعل شباب القرية نارا بالقرب من الشجرة وجلسوا يتعرفون على أدهم وأيهم وقد وصل ضوء النار الجماجم المرتبة حسب حجمها.

التفت أدهم للجماجم فرأى تنيبرا تجلس بالقرب من جمجمتها وهي ترمقه بنظرات غريبة وبدت غير قادرة على الاقتراب منها.

أيهم وهو ينظر بنفس الجهة: هل تظن انها خائفة من شكلها؟

ــ تبدو متحسرة.

ــ تظنها لم تكذب بشأن ما حدث معها.

ــ هي بالفعل كاذبة.

وصلت فريال مع عمها وتوجهت لجماعة الشباب وبدأت تحادث أدهم بعد أن رمته بكيس أدويته

ــ أدويتك وخذها بالترتيب العادي.

راح أيهم ينظر إليها وقد اعتمرته الغيرة من نظرة الشباب لها.

أدهم: لا بأس سأفعل.

ــ ستفعل أمامي، (شرب دواءه أمامها) جيد، بالتوفيق شباب.

ابتعدت فتبعها أيهم وكانت ممسكة بذراع والده حتى لا تتعثر في الظلام

ــ ألا تخجلين يا امرأة، وأنت يا أبي، سمحت لها بالمجيء وأنت تعلم أن معنا رجالًا غربا.

ضحكت فريال

ــ لابد أنك تمزح كلهم أصغر مني عمرًا، كنت أشبعهم ضربا في صغري.

ــ عندما كنا صغارا كنت لا أطيقك...

وضع يده على فمه وهو جد غاضب وعاد أدراجه دون أن يكمل كلامه، جلس بجانب أدهم الذي ربت على كتفه

ــ سينتهي الأمر قريبًا.

مرت ساعة أخرى والشباب يتضاحكون حول ذكريات قديمة في القرية بينما راح أدهم يشعر بالنعاس بسبب دوائه، راح يغفو شيئا فشيئا وهو يمسك يد أيهم وهناك بدأ بسماع صوت بعيد يقترب وهو يهمس له

ــ ولدي الحبيب، كل ما أردته رجل أستطيع الاعتماد عليه، سأتمسك بك إلى آخر لحظة من هذا العالم.

اقتربت تنيبرا منه وقد صار وجهها كلّه جميلا، لم يستطع إبعاد عينيه عن تفاصيلها وهي تقترب وتضعُ يدها على صدره

ــ كل ما أردته أن أذيب هذا الجليد المحيط بقلبك لأجعلك تحس بي وتتبعني، أردتُك أن تربح ما خسرتُه أنا وانظر ماذا فعلتَ بأمّك الحنون؟ (أشارت بيدها ليرى بقايا عظامها المتكومة) ... فضلتك أنت واخترتك بدل أخيك... كسرت السلسلة وتحديت اللعنة كلها لأجلك (ضغطتْ على قلبه لدرجة أحس بأنه يحتضر) أنظر لقد كسرتني.

تحول وجهها الجميل إلى بشع مشوه أغمض عينيه بقوة ليستيقظ وعند فتح عينيه أحس بضوء الشمس يحرق عينيه

ــ يا إلهي ما هذا الحلم الغريب؟

مشى بين الخيم التي راحت تظهر أمامه، ورأى البئر غير بعيد فاقترب منه وكان كاليڤو جالسا على حافته الحجرية وقدماه تتدليان للخارج وهو يشير إليه بالاقتراب، لم يتحرك أدهم وراح يحك عينيه ليستيقظ.

سار نحو الخيم ليتجنبه وكان هناك احتفال كبير، سمع أولاد القبيلة يجرون خلف بعض يهتفون لزواج شيخ قبيلتهم، ثم رأى كاليڤو يأخذ شعلة من النار التي نُصِبَ عليها الطعام ويرميها نحو مجلس النساء وسرعان ما نشبت النار في كل مكان، تغيرت حال القبيلة في لحظة وصار كاليڤو في الساحة يقوم بضرب أقرانه باستخدام مقلاعه وقد هرب منه الجميع أصاب بطن امرأة حامل فاقتربت منه وجلست على ركبتيها.

ــ بني أوقف هذه الحركات، والدك لن يسامحك على هذه المناوشات فأنت تعرف ما سيحدث لو شكى الأعيان سوء تصرفك لوالدك...هيا الطعام جاهز.

استدار لأدهم ورمقه بنظرة مستهزئة وأكمل طريقه، عاد المشهد ليتغير ويصير كاليڤو مربوطا للشجرة وسط القبيلة وكان والده ينهره والمرأة الحامل تمسك قدمه تترجاه أن يرحمه، لكن لم يُغير ذلك من موقفه شيئا، كانت نظرات الحشد في امتعاض وراحت الجمل تتكرر والصوت يعلو: "هذا الولد تسكنه روح شريرة".

تغير الحال وصارت الدنيا ربيعا وقد أخذ شيخ القبيلة سلاحا غريب الشكل، كان سكينا بثلاث شفرات حادة: هذا السلاح الغريب أشد خطورة من الأسهم والرماح، ستتعلم استخدامه وتقطع ألسنة الوجهاء الذين يصفونك بعديم الجدوى.

رفع السلاح وأداره في يده مرتين وصوب على جذع الشجرة وما أن قطعت الخشب حتى أستدار بها دورة كاملة وقطع ذراع والده ثم تركه غارقا في دمائه ومر من أمام أدهم

ــ المسكين لا يعلم أنّني لست مهتمًّا ابدًا بقطع ألسنة الوجهاء، بل كان جُلُّ اهتمامي منصبًّا على الكيفية التي سأقطع بها ذراعه.

صارت الدّنيا ظلامًا وعجز أدهم عن إيجاد طريقه، تتبع ضوءً خافتا لنارٍ بالقرب من خيمة صغيرة. رأى بداخلها ظِلَّ كاليڤو وهو يحمل أخته الصغرى يهزّها ليُسكتها ثم أعادها لفراشها: نامي أُخَيَّتي الحلوة نامي وعلى خطى العظيمة نومينيسا سيري، واكبري وصيري قوية لتحكمي مكان هذا العجوز.

خرج وخلفه والده يسأل: أين أختك؟ أخبرني اين وضعتها أيها الشيطان الملعون.

ــ ماذا ستفعل أيها العجوز الأبتر؟ تربطني للشجرة (أشار بيده وكانت قد احترقت تماما).

اقتربت المرأة ودموعها تبلل خديها: دعه وشأنه أنا طلبت منه ان يضعها في فراشها، انظر لا تزال بنفس المكان.

كان الغضب يعميه التفت للخيمة وشاهد خيال ذراع الرضيعة يرتفع عن فراشها.

ــ هذه الروح الشريرة ستموت الليلة.

جرى خلفه وصولا للبئر، وكاليڤو يضحك كأنه يمارس لعبة ما، وقف على حافة البئر وفتح كلا ذراعيه: لن أمنحك لذة قتلي.

عاد للوراء وسقط في البئر، لم يتحرك أدهم من مكانه، لكنه شعر بصداع رهيب عاد خطوتين للخلف فتعثر بستار خلفه ووقع، ليكتشف أنه قد مزق مدخل الخيمة، اعتدل في وقفته ودخلها كانت نفس المرأة جالسة على ركبتيها وهي تضم الرّضيعة بكل قوتها: لم يعد لديك اخ يحميك يا ابنتي، لم أستطع انقاذه من ذلك الشر يا ابنتي.

أبعدتها عن صدرها ونظرت لوجهها الذي يظهر أن بنصفه تشوه عظمي جعلها تبدو كأبشع ما يكون.

راحت نبضات قلب أدهم تتزايد لحين فزع من حُلمه وأعادته يد الجد للاسترخاء كان يقرأ عليه سورا من القرآن وأيهم يفرك يديه بينما بقية الشباب نائمين.

ــ هل أنت بخير.

ــ كلهم كاذبون... مخادعون يا أخي.

ــ ماذا جرى؟ هل من خطب ما؟

بزغ نور الصباح، وباستيقاظ الشباب لاحظوا أمرا غريبًا فقد صار لكل جمجمة عظامها الخاصة مرتبة كهيكل عظمي مصوّر بكتب التشريح.

ــ ما هذا يا شيخ؟

ــ (غمزَ أيهمُ أدهم) شعرنا بالملل فقمنا بترتيبهم كلعبة التركيب (لم يجرؤوا على إخبارهم بالحقيقة... حقيقة أن العظام رتبت لوحدها بشكل دقيق).

قال ذلك وسار نحو البيت

ــ سأغفو قليلا (ثم سحب أدهمَ بعيدا) لا تتعب نفسك بالتفكير، أيا كانت العلاقة بينهما فهي لن تغير شيئا مما نفعله، هي تحاول الوصول لتعاطفك كما فعلت معي.

أماء له بالإيجاب وتركه يعود للمنزل، وبمجرد دخوله استحم بماء بارد وغير ملابسه وارتمى على الأريكة، ابعد قدمي والده النائم عنها وانحشر في المكان المتبقي، دخلت فريال التي لم تنم طوال الليل ووضعت عليه غطاءً.

انفتحت النافذة فذهبت لتغلقها وقد لاحظت الرطوبة التي علتها

ــ ما هذا الصباح الرطب؟

عادت لتجلس على الأريكة، فكلمها أيهم

ــ فريال دعيني أنام فانا متعب جدا، فرياال.

رفع رأسه وكانت تنظر إليه بعينيها الجميلتين وكحلها النيلي، ارتعب

ــ هل يحدث معي ما حدث مع أدهم؟.

راحت تدندن بصوت رفيع يشبه التهويدة ثم رفع الستار عن باب الخيمة ودخلت امرأة تجر في يدها طفلة غطت نصف وجهها بشعرها البني القصير وعيناها لا تنظران لغيرها.

ــ كالعادة تعرفين الأعراف، لا يجب أن يراها أي أحد (أماءت المرأة برأسها دون أن تنطق، جرت نحوها المرأة وعانقتها) يا عزيزتي كم أتمنى أن تتمكني من النطق فقط لأسمع صوتك، سأذهب الآن للمجلس فانتبهي عليها.

جلست أم برام على الأرض وأشارت للطفلة فجلست بحجرها وراحت تدندن تهويدة إلى أن نامت.

أيهم: أنا لن اجلس هنا، ليس لدي فضول لأعرف ما يجري.

خرج من هناك فوجد الوقت ظلاما واختفت الخيمة ليظهر البئر وأم برام جالسة على حافته وقد دفعت الطفلة داخله، جرى نحو الحافة لإنقاذها وكانت الطفلة قد مدت يدها لأم برام لتسحبها وهي تقبض بيدها الأخرى على كمية من الطين سلمتها لها ثم رفعت شعرها المبلل عن وجهها وهناك تراجع أيهم خطوات للخلف

ــ تنيبرا هذه انت.

لم تلتفت الطفلة لكن أم برام أشارت بيدها لينظر خلفه، استدار فوجد نفسه بنفس الخيمة وأم برام ترفع الستار وتدخل مع الطفلة ثم تشير لبطنها الذي بدأ ينتفخ ثم تضع أصبعها على فمها تطلب من الطفلة كتم الأمر.

ضربت الرياح بقوة جعلت أيهم يغطي عينيه بكلتا يديه وعندما أحس بأن الجو قد هدأ، فرك عينيه وفتحهما وقد عاد للبئر وكان الظلام حالكا. المنظر الذي رآه هناك كان بشعا لدرجةِ أنه شعر بمعدته تقلب. أم برام قد أجهضت صغيرها بيديها ووضعت بفمه كمية من الطين ثم قامت برميه قبل أن تقطع حبله السري ثم صرخت بأعلى صوتها وقد انفصل عن رحمها.

اغمي عليها فجرت الطفلة نحوها وراحت ترش وجهها بالماء، ولم يعد باستطاعة أيهم مواجهة الأمر فجرى مبتعدا وصل الساحة بين الخيم فرآها تجلس على إحدى الصخور هناك، وسمع صوت غنائها الساحر والفتيات يطربن حولها، سمعها وهي ترد التحية لكل من يمر وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، ثم رآى رجلا يشير إليها بأصبعه بينما يتهكم عليها ثم تسارع الأمر وصار الكل يشير إليها ويبدون تقززهم منها، انهارت أخيرا بالساحة وقد تقدم منها رجلان وسحباها لشيخ القبيلة مبتور الذراع والذي طلب منهم فتح فمها وقام بقطع لسانها ورفعه أمام الجميع ثم رماه أرضا وداسه وراحوا يسحبونها باتجاه البئر والنساء خلفها يلعنها

وعند البئر اقتربت منها إحدى النساء وحملت كومة من التراب وضعتها بفمها ثم أشار شيخ القبيلة فقاموا برميها داخل البئر.

رن جرس الباب، قامت فريال لفتحه

ــ أهلا حجيلة ...أهلا جدتي.

كانت حجيلة مطأطأة الرأس

ــ آسفة على الظهور المفاجئ.

استقبلتهم والدة أدهم أهلا حجيلة يا ابنتي شرّفت (وبصوت غير مسموع) هناك أمر يفوتني ليتني أعرفه.

أدخلتهم الصالون فتوجهت الجدة لأيهم

ــ هذا الولد ليس نائما رشوه بالماء.

فريال: غفى قبل لحظات فقط، لا يمكن أن أوقظه الآن.

صرخت بها: قلت رشيه.

جرت فريال للمطبخ وأحضرت كاس ماء ورشت بأصابعها وجهه، أخذت منها جدةُ حجيلة الكأس وصبَّتهُ على وجهه فاستيقظ مذعورا.

فريال: أنا آسفة أيهم.

أبعدها عن طريقه وجرى نحو الحمام يستفرغ، عاد بعد لحظات وجلس في الصالون وهو تائه لا يستمع لكلام أمه أو فريال التي علمت بأن أمرا ما يسير بطريقة خاطئة.

هزته فانتبه: انا آسف فريال لم أكن على ما يرام (انتبه لحجيلة وجدتها) شكرا جدتي، سأذهب الآن للشباب، أمي هَلَّا حَضَّرت لي صينية قهوة لآخذها معي.

خرج يمشي وهو تائه وخلفه فريال وبيدها إبريق كبير من القهوة وحجيلة تحمل آخر للحليب وضعوا ما أحضروه بقرب الجد ومالت حجيلة تقبل رأسه

ــ كيف حالك جدي؟

ــ الحمد لله، مع من أتيت؟

ــ مع جدتي وقبل أن تسأل، أبي لا يعرف بقدومي لقد كذَبَتْ عليّ لحين وصلنا لباب المنزل.

أطل أيهم على الحفرة ونادى أخاه وكم تفاجأ بوجود حجيلة بالقرب من الهياكل العظمية تلتقط الصور، اقترب منها

ــ نونا؟

ارتبكت وأخفت الهاتف

ــ انا آسفة أخذني الفضول.

ــ هل هذه أنت أم أنك شبح من نوع ما؟

مد يده ليتأكد من وجودها فتقززت وابتعدت خطوتين

ــ لا تلمسني يداك متسختان.

ــ هذه فعلا أنت نونا، لم أتيت؟

ــ كما أخبرتُ جدي، سحبتني جدتي إلى هنا رغمًا عنّي.

لاحظ الصفرة تعلو وجهها فابتعد

ــ أنا أعتذر كنت سأستحم.

ــ لا عليك تشبه رائحتك المشرحة.

وصل أحد الخبراء أخيرا تعلوا أنفه نظاراته الكبيرة السّميكة، وبنطاله العريض وفي يده ملف ظهرت منه بعض الأوراق، اتجه نحوه أدهم وعاد بعض الوقت يخانق نفسه، سأله الشباب عم جرى.

ــ إدارة لعينة، لم يكن يتوقع أن يجد هذا الكم من الهياكل سيرسل في طلب آخرين من مركز الولاية الله أعلم متى سيصلون.

تناوب الشباب على البقاء بموقع البئر ليتمكنوا من الاستحمام وأخذ قسط من الراحة، بينما لم يتحرك الجد من مكانه وبيده المصحف وسرعان ما انظم اليه بعض كبار القرية.

جلس الأخوان رفقة حجيلة وفريال والتحقت بهما الجدة في الصالون بينما راحا يخبرانهم بتفاصيل ما رأياه.

الجدة: اذن هم مقربون من بعض.

أيهم: لازلت لا أفهم البشاعة التي رأيت.

ــ عادي، حملت بابن غير شرعي لتضحي به مقابل أن تشفى من بكمها.

تململت حجيلة وسألت وهي تفرك أصابعها: جدتي ...هل انت فعلا ...؟!

ــ (قاطعتها) قولي ساحرة وارتاحي، أستغفر الله العظيم، الساحر لا يدخل الجنة أم أنك تريننني في النار.

مساء ذلك اليوم صرف الجد الشباب ومعهم أدهم وأيهم

ــ اذهبوا للراحة سأسهر هنا مع الكبار فقد مللت مجالستكم.

والد أدهم: الجد محق اليوم دورنا في الحراسة، واللعنة على الإدارة التي لا يهمها شيء.

وبصالون المنزل جلس الجميع يتسامرون.

أيهم: تعتقد أنه لو نمنا قد يتكرر الأمر مجددا.

ضحك أدهم

ــ تريد أن تجرّب؟

فريال: أدهم ليس وقت المزاح، لو رأيت وجه أخيك صباحا ما جعلت من الأمر نكتة.

أيهم: وأنت لم تري وجهه ليلا كان هكذا (راح يمثل بوجهه وفريال تضحك)، أفكر ماذا يجب أن أفعل بمسودة الكتاب الآن.

تلصص أدهم على حجيلة التي كانت تراقب هاتفها

ــ تنظرين لصور الهياكل العظمية! ألم تستطيعي مقاومة طبيبة العظام بداخلك؟

احمرت وجنتاها وأخفت الهاتف، دخلت جدتها وجدة أدهم للصالون، بدتا جد متفقتين وبينما صعدت الفتاتان للغرفة نام أيهم وأدهم وجلست الجدتان تتسامران.

انتبهتا لوهج النار الذي سطع عبر النافذة: لقد بدأوا بحرق العظام.

جدة حجيلة: أخبرتهم أن يحرقوها قبل أن يستيقظ الشباب في الصباح.

ــ في صغري كنا نخاف المرور من هناك، هكذا أفضل.

استيقظ أدهم فرأى أم برام تجلس عند رأس أيهم نكزه بيده فاستيقظ: ماذا يجري؟

ــ طار النوم من عيني قلت أحدّثك قليلا لحين يأخذني النعاس.

ــ سأحضر فنجان قهوة، فأنت لا تنعس بسهولة (قام لكنه تعثر فالأرض قد صارت عشبية زلقة) ... ليس مجددا.

ساعده أدهم على الوقوف: ألم ننم بالصالون للتو؟

ــ هذه اللعبة القذرة التي يلعبونها معنا.

سارا لحين رأيا ضوء نارٍ مشتعلة وسط الساحة، وفتاة هناك تتسلل بين الخيم تود عبور الساحة إلى الجهة المقابلة، لكنها بمنتصف الطريق تعثرت وسقطت، مد لها رجل يرتدي لباسا أبيضا وبُرْنُسًا على كتفيه يده

ــ دعيني أساعدك.

أمسك يدها وساعدها على الوقوف، هبت نسمة هواء أبعدت شعرها عن وجهها المشوه فأخفته بيديها، ابتسم لها

ــ لا بأس كل امرأة جميلة بطريقتها الخاصة.

لكز أيهم أخاه وهمس: هذه تنيبرا ...

هربت من أمامه ومرت بين أدهم وأيهم لتدخل الخيمة، ارتفعت الشمس في السماء وامتلأت الساحة بنساء القبيلة الذين رحن يتطلعن نحو خيمة شيخ القبيلة المفتوحة.

أدهم: أعتقد أنه يفترض بنا مواصلة اللعبة ومعرفة ما ينظرن إليه.

أمسك ايهم بيد أخيه

ــ لا تترك يدي، لا أريد أن أُضيِّعك هنا.

وصلا الخيمة وكان الشاب من الساحة واقفا أمام شيخ القبيلة الأبتر الذي قال: مرحب بك بيننا ما أردت البقاء.

راحت الفتيات يتقافزن: "يا له من وسيم! من أي بلاد أتى؟"

عاد الظلام ليغشى المكان مرة أخرى، وظهرت البئر وتنيبرا جالسة على حافتها تدندن تهويدة جعلت أيهم يغلق أذنيه

ــ صرت أكره هذا اللحن.

فجأة انتفضت واختبأت غير بعيد عن مكانها، وعندما رأت الغريبَ يأخذ من ماء البئر ليشرب أوقفته: لا تشرب، ماؤه غير صالح.

استدار وابتسم لها: هل أنت بخير من تلك السقطة؟

ــ (أماءت له براسها) أجل انا بخير.

جلسا يتحدثان وارتفع صوت ضحكهما، وتبعهما أدهم وأيهم لحد الساحة حيث افترقا ودخل كلٌّ خيمته، زاد لهيب النار في الساحة وراحت تعج بالناس، وخصوصا الفتيات وقد تزيَّنَ بأبهى الحلي.

خرج شيخ القبيلة من خيمته وخلفه تنيبرا ترتدي عباءة تخفي كل تفاصيلها ثم جلست على يمينه، بدأت النساء ترقصن في الساحة وعلت أصوات الفرحة المكان وبعدها أتى الرجال يحملون على أكتافهم شابًّا قويًّا أنزلوه بالقرب من شيخ القبيلة الذي أشار نحو خيمة فخرجت منها فتاة حسناء وبدأت الزغاريد تعلو.

أمسك الشاب بيد الصبية وجلسا غير بعيد عن مقعد شيخ القبيلة وحينها ضغط أيهم على ذراع أدهم: هل هي حفلة زواج مثلا؟ ...

لم يستطع أدهم سماع ما قاله الشيخ قبل أن تقوم تنيبرا وتبعد العباءة فيظهر فستانها الأبيض والخلخال بقدمها اليسرى، كان شعرها قد ازداد طولا وجزء وجهها الظاهر يضاهي القمر في جماله ثم عادت للجلوس بمكانها.

اقترب كهل وبيده طبل راح يضرب عليه بعصا خشبية صغيرة.

أدهم: لنقترب، لست أسمع ما يقول. (تردد أيهم) هيا لا تكن جبانا.

سحبه لحين اقتربا أكثر كان يقول: "كان يا مكان في قديم الزمان، في هذه الساحة بالذات رقصت أجمل الأميرات، بثوبها الحريري الأزرق وتاجها الذهبي المرصّع، بجمالها الذي تغنّى به كل حكواتي عبر الأمصار... الحسناء التي لم تلد مثلها النساء، حامية قبيلتنا مروضة الأسود... هنا رمت فضّتها وتسابق الرجال للظفر بها، هنا بدأت عادة الأميرات على خطى الأميرة "نومينيسا" ابنة مؤسس قبيلتنا، التي يعود لها الفضل في عودة المياه وزيادة الزرع، وتكريمًا لها ولما فعلت، سنجدد اليوم ذكراها و كمثل ما فعلت و بنفس الطقوس سنرى من سيفوز بقلب أميرة قبيلتنا.

وقفت تنيبرا ورفعت بيدها قلادة فضية رمتها بمنتصف الساحة ومشى رجلان يحملان مكانس كبيرة يقلبان التراب حتى ثار الغبار واختفت القلادة، بدأ الرجال يتوافدون اثنين اثنين ثم انضم إليهم الرجل الغريب ذو البرنس الأبيض وقابله أحد شباب القرية الأقوياء.

أشارت تنيبرا بعينيها للغريب تريه مكان الحِلْية لكنّ الشاب من قبيلتها انتبه إلى نظراتها وأخذها قبله، عمت الزغاريد المكان واختفوا جميعا.

أدهم: ألم أخبرك أنها كذبت... هنا فقدت حبيبها، ولكن ليس بتلك الشناعة التي وصفتها.

ــ كم كنتُ غبيا وسهل الانقياد، لِمَ تجعلنا نرى كل هذا؟!

عاد الجميع للظهور ومما يبدو أنها ليلة مختلفة فقد انحنى الشاب الغريب على ركبته وهو يتحدث إلى شيخ القبيلة الذي ابتسم له رضًا عن كلامه، وكم تغيرت ملامح تنيبرا وهي ترى الرجل الغريب يشير بيده لصبية حسناء من جمع النساء فاقتربت منه وأخذت من شيخ القبيلة حلية لمباركة زواجهما.

عادت الزغاريد لترتفع ولم يلاحظ أحد الدمع الحارّ الذي ذرفته تنيبرا، عاد صاحب الطبل ليضرب مجددا ويهتف الجميع: "نومينيسا".

على خطى نومينيسا نبارك زواج الغريب لامرأة من قبيلتنا، وها هو يعلن الولاء ويعهد لشيخنا بالوفاء والتقديس لرموز عشيرتنا، ويقسم بشرف أجداده بأن يكون فارسًا نُعوِّل عليه في الشدائد وألا يغدر بابنة شيخ قبيلتنا كما حدث قبلا مع أميرتنا نومينيسا (هتف الجميع نومينيسا) ... ها هو الغريب يكلف بحمايتها...

ضرب على الطبل ثلاثا وابتعد عن وسط الساحة وحينها اقتربت الفتاة من الليلة الماضية والصبية التي أشار لها الغريب إلى منتصف الساحة وراحتا ترقصان وعينا الغريب معلقتان على من اختارها وخصلات شعرها تلاعبها نسمة هواء الليل، توقف صوت الطبل لحظة عندما نزلت تنيبرا لوسط الساحة ثم عادت لتضرب بصوت أعلى بينما شاركتهما الرقص وكلما استدارت مررت يدها على شعرها المنسدل على نصف وجهها خوفا من ان يظهر للعيان لكنها لم تتحمل نظرات الغريب التي لم تنتبه لوجودها.

تركت الساحة وجرت نحو البئر وتبعها أدهم وأيهم، صرخت بأعلى صوتها وراحت تنزع حليها وترميهم بالبئر، ثم رفعت شعرها عاليا لينسدل مجددا لكن هذه المرة ليغطي النصف الجميل من وجهها ويظهر الجزء البشع وعينها التي كانت تقدح شررا.

هبت ريح قوية كادت أن تفرق بين أدهم وأيهم لولا إمساكهما بأيدي بعض.

صارا بالساحة مجددا وقد نُصِبَ ما يشبه المجلس وسطه حيث جلست تنيبرا مشوهة الوجه تأْمُرُ وتَنْهَى، ثم انحنى أمامها الغريب وخلفه الصبية وبيدها رضيع راح يمص أصبعها.

أشارت المشوهة لرجل أسود واقف بالقرب منهم فاستل الغريب سيفه وقتله وأعاد السيف المضرّج بالدماء لغمده، ضحكت للأمر ثم وقفت وانحنى لها الكل: بلغني أن "صيلداي" قد هوجمت وأن الغرباء لن يكتفوا بما حققوه من نصر وكما تعلمون أنهم سيمرون بنا في طريقهم إلى "سيتيفيس" وهو محرم علينا مغادرة الأرض ولذلك ها أنا أعهد بثقتي لفارسكم ليأتينا بالخبر المبين.

سلمت الغريب حصانا فركب وتبعه بعض الفرسان وعندما تأكدت من ابتعادهم عادت لتجلس وأشارت للصبية فاقتربت، أخذت منها الولد ووضعته بحجرها بينما غادرت الصبية مكسورة الخاطر.

بعد مدة أصبح الجو ماطرًا... خرجت تنيبرا من خيمتها تجر ثوبها المبلل وشعرُها منحسرٌ للخلف مما جعل وجهها بنصفيه باديًا، التقت بالصبية وقد صارت ملابسها كأسمال بالية وقد ملأ التراب وجهها، تعلقت بقدميها تترجاها: أعيدي إلى ولدي ... ما الذي فعلته بفلذة كبدي؟

ما كان من تنيبرا إلا أن سحبت خنجرا من جيدها وغرسته بصدر الصبية وضحكت بأعلى صوتها: أخذت كل شيء مني، الرجل الذي أحببت، الولد الذي لم أتمكن يوما من إنجابه... أخذت كل شيء مني وأنا سأستعيد كل شيء.

واصلت الضحك بشكل هستيري وقد بللها المطر كليا، تحولت تلك الضحكة لنظرة خوف وجرت هاربة عندما رأت الرجل الغريب، تبعها شاهرا سيفه وعيناه تقدحان شررا، لحقها للبئر وحاصرها: عليك أن تفهمني...إنها العادات، لقد ولد في يوم شؤم... ذكرى اختفاء أميرتنا... لم يحق له العيش... كنا لنهلك... أنت لا تفهم. ضربة واحدة من سيفه كانت كافية لتجعل عينيها تجحظان، اقترب منها وهمس بأذنها: "لقد احببتك ببشاعتك حقا، فلم فعلت ذلك؟"

دفعها من كتفيها فسقطت في البئر، تحركت قدم أيهم فجرت فريال تهزه ثم جرت نحو أدهم وقد هالهما المنظر كانت هناك أضواء برتقالية تدخل عبر النوافذ الخارجية وفريال وحجيلة ملتصقتين ببعض خوفا من الصوت الرقيق الذي يشبه التهويدة وقد راح يعلو أكثر فأكثر.

أدهم: ماذا يجري؟

تحدثت جدته: إنهم يحرقون الهياكل عند البئر.

أيهم: أين أمي وعمتي؟

فريال: تغطان في النوم، كيف لا تحسان بهذا الأمر.

راحت وجوه الأشباح تظهر وتختفي مرة تنيبرا ومرة أم برام وفي اخرى كاليڤو، صرخت حجيلة فجرى نحوها أدهم: هل انت بخير؟

ــ (تلعثمت) لقد رأيتها ...ررر...رأيتها.

ضَمّها إليه بقوة

ــ لا تخافي أنا معك... أنا هنا... سيكون كل شيء على ما يرام.

تشبثت بظهره وغرست رأسها عميقا بصدره: أنا لست خائفة... لكن لا تتركني.

بدأت الأرض تهتز فصرخ أيهم

ــ هل يحدث هذا عندنا فقط؟

ظهرت تنيبرا جالسة على الأريكة تنهمر من عينيها الدموع وبجانبها أم برام ثم ظهر كاليڤو وتحدثت بصوت مبحوح

ــ كل ما أردته ان تصير ملكي وتعوضني عن مأساتي... كانت غلطتي أن اخترتك بدلا منه (نظرت لأيهم وأكملت كلامها) أنت ولدت بيوم مشؤوم وأنا خالفت القاعدة، (عادت لتنظر لأدهم) لقد أحببتك كطفل لي... ما كان يجب أن تولد أولا. (وجهت الحديث لأيهم) ما كان يجب ان تولد أنت بذلك اليوم وتحرمني من سعادتي.

شد أدهم حجيلة على صدره أكثر

ــ وقتك هنا صار معدوما.

ــ (ضحكت وقهقهت) ما رأيتَه كان الحقيقة وأنا كذبت لتتبعني، أنا مجرد قرين مسكين عليه إكمال ما بدأ قبل زمن طويل (أمالت رأسها وانهمرت من عينها دمعة وأشارت لحجيلة فضمها أدهم إليه أكثر) ستكون أمامكم مشكلة أسوء مني وستكون عزائي.

راحت تنيبرا تقترب شيئا فشيئا من أدهم وحجيلة وصورتها تتلاشى وكذلك حدث مع كاليڤو الذي همس أثناء اختفائه: أخبرتهم أن ولادتي شؤم وعليهم التصرف... لا أحد اهتم... لا أحد فهم (نظر إلى أيهم) مثلك تماما.

راحت صورهم تختفي شيئا فشيئا، لكن جدة حجيلة تحدثت بعد أن لاحظوا أن الأرض لاتزال تهتز

ــ لا زالت مرتبطة بسحر.

أيهم: أي ارتباط؟ ماذا تعنين؟

ــ السحر الذي جعلها تظهر بعد هذه السنوات وساعدها في استدراج تلك الجثث المرمية بالخارج، لابد أنها استخدمت أضحية لربط السحر، علينا إيجاده وإلا فكل ما فعلناه سيذهب سدى.

أيهم: أين الرضيع الصغير.

أدهم: نوكس...أجل... هو ليس ولدها... هل يكون ولد تلك المرأة؟

نظرا لبعض ثم للبقية وهناك ظهر من أسفل الأريكة وراح يحبو ويهتز كاللعبة، رمى أدهم نفسه نحوه ليمسكه لكنه لم يفلح كانت سرعته كبيرة، أمسكت حجيلة بقدمه فاستدار رأسه لوحده إليها وراح يهتز ولعابه يغطي المكان صرخت وقد أفزعها فتركت قدمه.

ــ يا أمي...

أمسكته جدتها من رقبته وثبتته في الأرض

ــ عليك اللعنة، راحت تخنقه وهو يزيد من اهتزازه وعيناه السوداويتان تنظران إليها، حملت جدة أدهم قربة من الماء ورفعتها عاليا ثم تركتها لتسقط على رأسه.

التفتت جدة حجيلة

ــ لم يعد هناك ما تخافون منه.

كان لون حجيلة وفريال شاحبا وكانتا عاجزتين عن تركيب أي جملة، بينما جرى أدهم وأيهم باتجاه البئر، كان أحد جيرانهم يرمي بالعظام في النار التي أشعلوها بالحفرة.

أشار أدهم للجد الذي كان يجهر بالقرآن بأن الأمر قد انتهي، ثم للجيران ووالده

ــ اتركوا على الأقل هيكلا او اثنين للسلطات حتى نستطيع الفرار من العقاب.

أشار جاره للهيكل الاخير: هل ينفع هذا؟

صبيحة اليوم الموالي استيقظت والدة أدهم بصداع في رأسها ونزلت للصالون

ــ أشم رائحة الشواء.

ضحك أدهم وقد تمدد على طول الاريكة

ــ ألم تحسي بهزة الامس؟

ــ أي هزة؟ (سألت زوجة عمه)

فريال: يا أمي كل من بالقرية يتحدثون عنها.

والدة أدهم: ألم تكن حجيلة وجدتها هنا؟

ــ بلى عمتي أخذهما عمي صباحا بالسيارة فحجيلة لديها دوام.

تثاءب أدهم: أمي ما تقولين في حجيلة؟

ــ أقول على بركة الله، أشر إليّ فقط وسأخطبها لك.

ترك مكانه: حقا؟ طيب اعتبريني أشرت.

فريال: مبروك أدهم، تستحق كل السعادة.

تكلمت والدتها: كلكم تستحقون السعادة، سأفرح بك أنت ايضا.

تململ أيهم وغادر البيت مر بمكان البئر وكان الدرك قد حوّطوا الحفرة ووضعوا قطعة من النايلون الازرق على الهيكل العظمي بعد أن اضطروا لجمع اجزائه بمساعدة خبير مختص.

التقى والده: هل أوصلتهم؟

ــ أجل وعدت.

ــ أبي بشأن موضوع فريال كنت أود اخبارك بأمر.

ــ بني دعها على راحتها مادامت من فسخ الخطبة فلا تحاول التأثير على قرارها.

ــ (ارتبك) فريال فسخت الخطبة؟ أنت تمزح.

ــ أليس هذا ما اردت محادثتي فيه؟ فسختها قبل حضورنا إلى هنا وافتعلت مشكلة مع والدها.

كاد يطير فرحا وعانق والده الذي لم يدر ما السبب في كل ذلك.

مر شهر على الأمر وفي المستشفى راحت حجيلة تتكلم على الهاتف وهي تسير أمام عربة تحمل هيكلا عظميا

ــ نعم عزيزي سأصل للعرس في الوقت، أنت تعال أوصلني كما أوصيتك وأنا لن أتأخر... على فكرة سيحولون ذلك الهيكل لمركز مختص وقد أرسلوه إلى هنا ليحفظ...إدارة غريبة الأطوار هذا ليس مكانه على الإطلاق...آسفة لم اقصد ازعاجك بتفاصيل عملي.

أغلقت الخط وتحدثت الى الممرضة التي ترافقها

ــ إنه عرس فريال من ابن عمها.

الممرضة: أخو خطيبك الذي أتى لإيصالك تلك المرة.

ــ هو بشحمه ولحمه.

وصلت المشرحة فساعدتها الممرضة على نقل الرفاة إلى الكيس وإغلاقه

ــ سيأتي ممثل عن المركز لأخذ الرفاة تأكدي من أن يوقع الأوراق المطلوبة (قالت ذلك وهي تنزع مئزرها الذي علق بقلادتها، تنهدت) جدتي لم تصرين أن أضع هذه الحلي الرخيصة.

خرجت من هناك وأغلقت الباب، وأمام المشفى كان أدهم ينتظرها وهو يرتدي بدلة سوداء أظهرت كل وسامته، ابتسم لها فطأطأت رأسها.

ــ حبيبتي تبدو جميلة (احمرت وجنتاها) انظري لرقبتك بم خدشتها؟

ــ (تحسستها بيدها) يبدو أنني أوقعت القلادة، لا عليك... هيا لا أريد أن نتأخر.

وفي المشرحة اشتعلت المصابيح بضوئها الأبيض وظهرت فتاة بيضاء البشرة، حسناء بثوبها الحريري الأزرق وتاجها الذهبي المرصع، وراحت تدور كأنها ترقص وهي ترفع ذراعها عاليا بقلادة حجيلة حتى وصلت لكيس الرفاة، حدقت بالعظام لبعض الوقت ثم لانعكاسها على الطاولة المعدنية، عينها اليمنى خضراء والأخرى رمادية: «من قال أنّ "نومينيسا" هربت من غمار الحرب؟»

(النـهايـة)

ترانيم

تَعْصِفُ الأَوْهَام

وَتُعْلِنُ الحُرُوبَ فِي نُفُوسِنَا

تَسْطُوا عَلَى الأَحْلَام

تَبُثُّ فِي أَنْفَاسِنَا رَوَائِحَ الهَلَع

تَضُخُّ فِي قُلُوبِنَا نَبْضًا مِنَ الوَجَع

وَتَلْجُمُ العُقُولَ مِنْ سَطْوَتِهَا... تُعْجِزُهَا الكَلَام

تَحَضَّرِي أَسْطُورَتِي فَالمَجْدُ مَفْرُوشٌ لَكِ

وَالكُلُّ فِي شَغَفٍ بِكِ

فَلْتَرْفَعِي أَشْرِعَتَكِ، وَلْتُبْحِرِي فِي زِحْمَةِ الظَّلَام

تَنَائَرِي فِي الكَوْنِ وَلْتَغْزُوا سَرَايَاكِ السَّلَام

وَلْتَلْعَنِ الأَشْبَاحُ نُورَ الحَقِّ فِي كُلِّ التِحَام

وَلْيَكْتُبِ التَّارِيخُ مَجْدًا عَالِقًا

فِي غَابِرِ الأَزْمَانِ يَخْنُقُهُ الرُّكَام

رُكَامُ فَاجِعَةٍ،

أَنْقَاضُ مَأْسَاةٍ

يُوَارِي بُؤْسَهَا كَذِبُ اللِّئَام

هكذا أنا